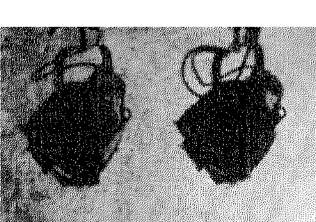

ملامح
تماماً..
كما
يحدث في السينما
عزة سلطان
مجموعة قصصية



الدنيا مثل فيلم جنسي من تلك النوعية التي تقوم على حكاية، نحن جميعًا نشاهده ونعلم أنه فيلم جنسي، لكننا بصورة أو بأخرى نتواطأ مع الحكاية الممهدة لإقامة علاقة حسية بين بطلين من الأبطال، وستجدنا جميعًا مشدودين إلى تلك الطريقة التي قبلها بها وهذه اللمسة التي لمستها له، ونخرج من حكاية إلى حكاية أخرى، متابعين جيدين جدًا لكل تغير يمكنه أن يجعل الآخر طرفًا في علاقة حسية معنا.

البعض يمكنه أن يصطنع العفة، ويتجاهل هذه الرغبات لكنه يسقط عبدًا لها في أحلامه، ونحن بدورنا نشاهد هذه الأحلام ونضحك: لأنه لا أحد يفلت من اللعبة أبدًا.

تماماً كما يحدث فى السينما

(مجموعة قصصية)

عزة سلطان

تماما كما يحدث في السينما

(مجموعة قصصية)

طبعة ملامح الأولي يناير 2009

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2009/1833**

I.S.B.N: 978-977-6262-49-2

تصميم الغلاف: ريهام ناجي

دار ملامح للنشر

٢ ش الديوان –جاردن سيتي – القاهرة

تليفون: 0020112771522 - 0020227949885

E-mail: info@malamih.com

Website: www.malamih.com

المدير التنفيذي: محمد الشرقاوى

قسم النشر: أحمد ناجي

تمامًا كما يحدث فى السينما

(مجموعة قصصية)

عزة سلطان



الإهداء

إلى

محمد ممدوح وولده حازم

أحبكما أكثر مما يمكن أن أصدق

إلى

أحمد عادل

كايزر

أمتن دومًا للمساندة

عابرٌ من ستة

لم تكن صاحبَ الخيالاتِ الأوحدَ في حياتها، كان هناك قبلَك خمسٌ آخرون، هذه الجملة تشبه الجملَ الكلاسيكيةَ في أدب ما بعد الستينات، شيء ما أشبه بقصة صبري موسي حادثة النصف متر، لماذا إذن تذكر هذه العبارةَ التي ألقتها في وجهه صديقتها بكلِّ سعادة وكأنها تحرز هدفًا في مرمى الزمالك.

تذكرَ هذه الجملةَ ونفثَ دخانَ سيجارته بهدوءٍ وهو يحاولُ أن يبدو منطقِـيًّا وهادئًا، هل كان فعلاً منشغلَ البالِ أن يكون الأولَ في حياتها، وكيفَ اعتقدَ أنه في القرن الحادي

والعشرين يمكن لأيٍّ رجل أن يكون الأولَ في حياة أيِّ امرأةٍ مادامَ قد عرفها بعد البلوغ. عليه أن يختارَ فتاةً بعدَ الفِطامِ ليتأكدَ أنه الأولُ في حياتها.

ضحكَ من سذاجةِ الفكرةِ، وكان يفكرُ بجدٍّ ما جدوى أن يكون الأولَ في قلبها أو في فرجها، وهل لذلك سبق ما، لم تكن فكرةُ الأوائل هذه تشغله حتى منذ المدرسة عندما كانت درجاته تؤهله دومًا أن يكون الأولَ لكنه يرفض استلام الجائزة التي عادةً ما تكون علبةَ أدوات هندسية أو ألوان فلوماستر يمكنه أن يتفاخر بها أمام أخته التي تعشق الرسم.

كانت صديقتها ساذجة وهي تظن أنها تكسبه بهذه المباغتة النميمية، شكرها كثيرًا بعد هذه الوشاية الجريئة وقدر لها أنها تضحي بصداقة العمر من أجل كسب صداقته، وتذكر تلك المقولة المأثورة [إنك إذا أردت أن تعرف عيوب امرأة فاذكر محاسنها أمام صديقاتها].

عاودَ السيرَ بهدوء، وهو يشعر بثمة شيء قد تغير بداخله ناحيتها، كان يُفَضِّلُ أن يكون رقم عشرة دون أن يعلم بحقيقة ذلك، تلك الازدواجية التي تملأ الرجلَ الشرقيَّ، الآن لا يمكنه مواجهة نفسه وهو يعرف أن هذا القلب قد عبره خمسة قبله، وربما يصبح هو الآخر أحدَ العابرين دون إسهامات حقيقية في حياتها.

تحكي أنه يأتيها في الحلم مُرتديًا بدلةً بيضاء من الكتان تشبه تلك التي ارتداها سنتياجو نصار في سرد أحداث موت معلن،

ويظل يراوغها وينتزع منها الابتسامات، ثم يختفي ويظهر ببدلة أخرى، كل شيء يمضي بسهولة ويسر، وربما هذه أحد مميزات الأحلام التي لا ندركها فهي لا تكلفنا أيَّ عناء، هي أسهل من السينما في لحظات يتغير المكان والأبطال والملابس، السفر يتم في لمح البصر وكل المشكلات تُحَلُّ، أو تُعَقَّدُ حسب الحبكة الدرامية، وربما أيضًا انتهت برسالة مستقبلية تحمل من الحكمة ما يؤهل صاحبَ الحلم لأن يعتلي بين رفاقه مكانةً مميزةً.

تحكي له أحلامًا كثيرةً يضحك وهو يستمع إليها ويشعر كم هي بريئةٌ جداً، وناعمةٌ، يعود لتذكر كلمات صديقتها، هو السادس كيف لها أن يمر كل هؤلاء بقلبها دون أن ينــزعوا عنها هذه البراءة، كان ذلك هو السؤال الشاغل له بحق، والذي فجَّر سؤالاً آخر، كيف لامرأة لها أجنحتها أن تكتفي بدقة قلب ولمسات متباعدة في سلام الأيدي، كان يحتاج أن يسألها بمباشَرة ووضوح إن كانت عذراء أم لا.

يقرر في نفسه أنها لو كانت مازالت عذراء سيتزوجها فورًا، وسينسى عبارة صديقتها البلهاء، كانت المهمة الأصعب بالنسبة له كيف يسألها عن عذريتها، ماذا لو كانت عذراء وكانت كلمات صديقتها فقط للوشاية وإحداث الوقيعة بينهما، وقتها سيتسبب لها في جرح ربما أفسد علاقته بها تمامًا، وربما أيضًا كانت ممثلةً بارعةً، واستطاعت أن تقنعه أنها عذراء وأجرت مثل هذه العمليات التي تُسهم في طمس الحقائق.

ماذا لو أن صديقتها فتاة حقيقية ولا تحب الزيف، وأرادت ألاَّ يقع فريسة لخداعها؟

لكن كيف لهذه الصديقة أن تُكِنَّ بكلّ هذا الإخلاص ناحيته بينما هي تفتقده ناحية صديقتها ذات العلاقة الأطول عُمرًا؟

ربما كانت هذه الفتاة معجبةً به، وترغب في إفساد علاقته بصديقتها وإقامة علاقة معه! لكن كيف له أن يعرف تاريخ هذه الصديقة وهل هو سيكون الأول في حياتها أم الثاني أو الثالث أو حتى العاشر؟

فتاته تبتسم بخجل حين يحدثها أنه يرغب في تقبليها، تضحك وتأبى مناقشة الأمر، يمسك يديها فيلحظ احمرارًا بوجنتيها وتلعثم ظاهر في نبراتها، كيف لها أن تحب خمسة قبله وتظل بمثل هذه السذاجة والبراءة! ألم يلمس أحدُهم يدها من قبل، بالطبع مستحيل لفتاة بحركتها ونشاطها وعلاقاتها ألا يلمس أحد يدها، ربما كانت ممثلةً جيدةً وتتقن فن الأداء والخداع، لكنه كان يشعر بصدقها في كل مرة كان يتلمس حرارةً تتصاعد من جسدها عندما يقترب منها، لا يمكنه أن يكذب مشاعره، يظن نفسه على جانب من النضج والخبرة فهي ليست الأولى في حياته ولا يمكن أن يجد لها ترتيبًا، فقد أقلع عن إحصاء الفتيات التي يتعرف إليهنَّ منذ خمس سنوات أو ست على الأقل.

يعـــاود سرد تفاصيلهـــا على ذهنـه، تمـشي بساقيـن مضمومتين بشدة، خطواتها قصيرة لا يبدو أنها مارست الجنس من قبل، كانت ستتعلم فتح رجليها واتساع خطواتها بعض الشيء، وربما تغيرت جلستها وأصبحت أكثر حريةً، لكنها تجلس وكأنها في مقعد المدرسة الإعدادية بكل خوف البلوغ و ارتياباته، لا يبدو أيضًا أنها تعرف معنى أن تقبل رجلاً في شبق؛ فسلامها إلى صديقتها ملامسة لطيفة للخد دون ضغطة.

بدأ يشعر بدوار وهو يفكر؛ كيف لمثل هذه الفتاة أن تعرف خمسة رجال قبله؟ الأمر يمكن أن يطير عقله من مشقة البحث والتحرِّي حولها، لكنه أيضًا إزاء كل هذه الأدلة لنفي مقولة صديقتها، لا يمكنه أن يصدق أن فتاة مثلها لها كل هذه العلاقات وبهذا العمر يمكن أن تظل في هذا العالم وفي هذه الظروف دون علاقة واحدة على الأقل، وعلاقة واحدة لن تصمدَ أمامَ الظروف الحياتية الصعبة؛ فعلاقة واحدة سيتوفر لها تاريخ يبدأ من الجامعة حيث الأحلام الوردية، وفترة المثاليات، وطبعًا ستتحطم هذه العلاقة بعد التخرج والتأكد من عدم مطابقة الحلم للواقع.

لقد تخرجت منذ ثماني سنوات، هل يمكن أن تقضي هذه السنوات دونَ علاقة عاطفية! استبعد فكرة الوحدة هذه واقتنع بضرورة وجود علاقة على الأقل في حياتها بعد التخرج، وبهذه الحسابات تكون لديها علاقتان، وهنا يمكن أن يكون كلام صديقتها به كثير من الصدق، لكن لماذا قررت صديقتها أن

تباغته بهذا الكشف الآن؟ ربما أرادت كلتاهما أو إحداهما اختباره واكتشاف إلى أي مدى يحبها!

الأمر يثقل على قلبه، يؤرقه عن كسب أن يكون هناك خمسةٌ يسبقونه إلى قلبها وربما إلى فراشها أيضًا، صار الأمر مؤرقًا، وهو يسير غير عابئ بتلك المسافة -الكبيرة جدًّا- التي مَشيَها، وبتلك الوساخات التي بدأت تظهر في بدلته الكتان البيضاء، تلك التي اشتراها بعد أن اشترى رواية ماركيز وعرف كيف كان بطله يرتدي ملابسه، وهي العاشقة لهذا الرجل، جاء يحقق حلمها، كان قد قرر قبل هذه الواقعة أن يحقق كل أحلامها في الرجال، ستجده سوبرمان إن رغبت، ستجده طرزان، ستجده أيّ إنسان أو حتى ملاك أو شيطان، سيكون كما تحب، لن يجعلها تفكر في رجل غيره، كان الأمر كذلك قبل أن يعرف أنه ليس الأول في حياتها، الآن ستكون أيُّ حركة له موضع مقارنة مع آخرين سبقوه في حلم.

يهز رأسه في عنف وكأنه ينفض هذه الأفكار السوداء عن رأسه، لماذا لا يفكر في الأمر بشكل آخر، لماذا لا يفكر أن هذه العلاقات التي سبقته تؤكد قناعاتها به، وأن نضجها حقيقي واختيارها له باقتناع! ربما كانت هذه الفكرة مقبولةً شكلاً بالنسبة له، لكن ماذا إن خرجت هذه العلاقات عن شكلها العاطفي وتطرقت لجوانب حسية، تراه كيف يلمسها وهو يرى يد رجل أخر تترك بصماتها على جسدها، كيف يقذف بمنيه بداخلها حالِمًا بطفل

يشبهه، ورحمها ملوث بمني آخرين قبله ربما حلموا أيضًا بطفل مثله ومنعتهم ظروف المجتمع ولا شرعية العلاقة.

كيف ينام بجوارها وهو واثق أن فراشها لن يشاركه فيه رجل آخر، وكيف يضمن إخلاصها وصدقها فيما بعد؟

خمسة آخرون غيره ربما هذا العدد هو ما تعرفه صديقتها وربما كان هناك رجال آخرون غيرهم لم تعرفهم صديقتها، ربما كان هناك آخرون عابرون لم تستمر علاقتها بهم فترة طويلة، وربما كان هؤلاء الخمسة هم من كانت فترة علاقتها بكل منهم تتجاوز العام، ربما كانوا ستة أو سبعة أو حتى عشرة، وربما كانت تعرف آخرين للاستمتاع الجسديِّ، وآخرين للعاطفيِّ، وربما كانت لديها قائمة بمن يشبعون احتياجات الوحدة لديها.

ربما كانت أحاسيس الحرارة التي يستشعرها عندما يقترب منها لها علاقة بسخونة الجو خاصة وأن أغلب هذه اللقاءات كانت في فترة الصيف، ربما لم يلحظ ملامحها جيدًا وأن فكرة الخجل محض تبني منه؛ إمعانًا في تقديسها وإضفاء سمات عذراوية عليها تنبع من عشقه للسيدة العذراء.

كاد يصطدم بعمود وهو مستغرق في التفكير بينما تمر سيارة عابرة لبركة من المياه الناتجة من انفجار إحدى مواسير الصرف.

قصةٌ أخيرةٌ قبلَ أن تنهيَ المكالمة

جلس قبالتها -بنصف ابتسامة- وبينما تتحدث رفع امرأة أخرى وأجلسها على فخذيه وقبلها قبلة متوسطة الطول على شفتيها، ثمة دور ألم بها وهي تمارس دهشتها وسط ما يحدث، ظلت تفتح عينيها باتساعهما لتتأكد من كونها ليست في حلم، ولا جدوى، هو يبتسم وكأنه لا يفعل شيئًا، وهي في ذهول يتدلى فكها الأسفل في مشهد عبيط جدًّا وساذج للغاية.

قطـــع

تنفض رأسها وهي ترى تلك الأفكار السوداء، لا تذكر له الآن سوى ابتسامته الصفراء كما تسميها العجائز اللواتي لا يعترفنَ بفكرة «نصف ابتسامة»، فالمرء يبتسم أو لا يبتسم.

في آخر مرة كان يحدثها عن الظلمِ التاريخيِّ الذي وقع على شهريار، ألم يكن شهريار يعاني من تسلط شهرزاد! كانت فكرة غريبة وهو يناقشها بجدية وينوى أن يكتب في هذا الصدد ويتحقق من كل كتب التاريخ، عن ماضي شهرزاد قبل أن ترتبط بشهريار ولماذا كانت تحكي له الحكايات بهذه النغمة الصوتية التي تبعث على الاسترخاء، في محاولة لجلب النوم فينام في وسط الحكاية وتبدو هي وكأنها نجت لليلة جديدة، أليس من المحتمل أن تكون شهرزاد على علاقة ما برجل قبل أن تتعرف إلى شهريار وقررت ألا ينالها حتى لا يعرف بانفراج عذريتها ومن ثم تتعرض لمصير سابقاتها؟

كان له منطق في تفكيره لم تستطع حياله أن ترفض هذه الفكرة، وهو يحاول أن يتسق مع التاريخ الذي هو ذكوريٌّ بالأساس ويأتي دومًا من وجهة نظر الرجل، لكن ذلك أيضًا غير صحيح؛ فقد أفلتت عشرات النساء من هذا الشركِ الذكوريِّ وظهرنَ بمظهر المتألمات والمنخدعات في عفة رجال ربما كان الأمر معكوسًا لو بحثنا في تاريخهن قبل الانخداع بالذكر المشارك في الحكاية التاريخية.

مرة أخرى يعود لشهرزاد: لماذا اهتمت أن تحفظ كل هذه الحكايات، ولماذا كان بها كثير من الحكايات الجنسية ألم تكن تتعمد أن تمهد شهريار لحالة من الإثارة فيحتلم أثناء النوم وبذلك تهدأ رغبته البيولوجية حتى يتفرغ لسماعها فقط؟ ألم تكن كل حكاياتها الجنسية عن نساء فاتنات هي محاولة لدفعه لغض البصر عنها؟ لماذا لم يقرأ أحدٌ التاريخَ بشكل صحيح ويحاول أن يعيد تحليل شخصية شهرزاد بشكل مختلف بعيدًا عن كونها امرأة تحاول أن تنجو من الموت بشغل ذهن قاتلها بحكايات أكثرها حكايات تملؤها الجنس والرغبة؟

قطـــع

خرج صوتها بصعوبة بعد أن كسرت حاجز الصمت وفجأةً قررت محادثته، جاءها صوته باهتًا بلا أيِّ انطباعات، تذكرت اشتياقه لكن اللحظات أفلتت منها إزاء فتوره المبالغ فيه، ولم تحاول أن تدفئ المكالمة بأية مشاعر تحاول هي التخلص منها. تجلس قبالته وتحكي قصصًا كثيرة، وهو بكل اهتمام يصغي لها ويبدى إعجابه بقدرتها على الحكي والتقاط لحظات خاصة جدًا من تفاصيل العالم، تضحك وتنبهه ألا ينام، لكنه يذكرها بشهريار وأنه سقط في الشرك لأنه لم يقرأ التاريخ جيدًا.

يضحكان، تتميز ضحكته في هذا اللقاء أنها كانت ضحكة كاملة، وأنها تخرج من مكانين الأول عيناه والثاني وجهه بأكمله، مازالت تعشق ابتسامته المكتملة، وتتحفظ كثيرًا على

النصف ابتسامة، تحكي له أنها عندما تحمل منه ستلد طفلاً له نفس ابتسامته، ويحكي لها أنها لو ظلت تحكي له حكايات لن يحدث ذلك، لأنه ربما سقط هو الآخر في نفس الشرك.

كان منشغلًا جدًّا بتأويل التاريخ وتقصِّي أخبار شهرزاد قبل زواجها من شهريار، وكانت هي منشغلةً في «ماذا كانت تفعل شهرزاد في احتياجاتها البيولوجية طوال تلك الفترة التي كانت مهمتها مقتصرةً على قص الحكايات على شهريار؟» لبعض الوقت بدأت تصدق أن شهرزاد كانت على علاقة برجل آخر ملكَ عقلَها وقلبَها وجسدَها أيضًا وألهمها هذه الفكرة العبقرية في أن تستحضر الطفل بداخل شهريار بحكاياتها ومن ثم تصرفه عن التفكير فيها كامرأة وبالتالي تهب نفسها لهذا الآخر المجهول تاريخيًا.

أعادت قراءة « ألف ليلة وليلة» أكثر من مرة تحاول أن تبحث عن هذا الرجل المخبوء في روح شهرزاد، هل كان له نفس ابتسامته، هل كان يحبها كما تحبه؟ عشرات الأسئلة ولا تجد إجابةً، لأنها كلما قرأت كانت تنسى هدفها بعد عشر ليال من حكايا شهرزاد.

قطــع

في شارع بطول المدينة كانت تتمشى وهي تفكر متى يشعر بمحبتها له، محبتها..؟!! هذه الكلمة غريبة على أذنها وهي تحتاج كلمةً أكثر قوة لتشرح باختصار أو لتسمي مشاعرها حياله، لكن قاموسَها اللغويَّ برغم كل الحكايات وألف ليلة وليلة التي

ملأت عقلها، كل هذه المفردات لم تمنحها القدرة على إيجاد تعريف أو إطلاق مصطلح على ما تشعر به، تافهة هي جدًّا لا ترى فيمَن تحب سوى ابتسامته وكأنه لو غضب أو اختفت هذه الابتسامة لن تحبه، ربما!

المشكلة أننا لم نتدرب على الممارسة ثلاثية الأبعاد، عادةً ما نُسَطِّح كلَّ ما نتعامل معه، نراه ثنائيَّ الأبعاد فقط، دون أيِّ أعماق، هي أيضًا تراه هكذا مجرد ابتسامة، ربما كان ذلك مدخلها إلى محبة ستكون إحدى علامات التاريخ فيما بعد، ربما!

لكن الحقيقة أنها لو صممت شكلًا ثلاثيَّ الأبعاد لرجلها المبتسم، ستجد عنده غضبًا جم ينطلق في إحدى مكالماته وهو يتهمها بإفساد حياته، وسترى أيضًا تجاهُلًا مقصودًا ومتعمدًا من قبله حيالَ كثير من تفاصيلها، وستجد هذه الابتسامة التي تتشدق بها مُهدَاةً إلى الجميع، فلماذا تراها هي مختلفةً إلى هذا الحد؟

ربما لأنها تذكر في بعض مذكراتها التي أعدتها في سياق ألف مكالمة ولقاء معدة نفسها لتكون حالة تاريخية فيما بعد، تذكر أنه يحتضنها بحنان لا تعتقد أنه يمنحه لغيرها؟ ربما!

تذكر أيضا أنه اختصها بكلمة وحشتيني في اثني عشر مكالمة من إجمالي مكالمات لم تكن تعد نفسها لحصرها فيما مضى لكنها وعدت أن تقوم بذلك في الفترة التالية.

تذكر أيضًا... لكنها تركت مساحة كبيرة من الفراغ لأنها لم تجد ما تذكره، فقط سجلت ملاحظة في هذه اليوميات أو

الحكايات، بأنها انشغلت في الاتصال به، وتظن أن ذلك محاولة للهروب من إفلاس ذكرياتها عنه وعن علاقاتهما الوهمية.

قطـــع

خمسُ نســـاء تحطن به، وكأنه تحول -فجـــأةً- إلى شخصية خرافية، وكل هؤلاء المتلهفات يقفن في ترقب لنظرة منه، يستطرد هو في حديث طويل نعرف فيما بعد أنها محاضرة، وأن هناك مشاهدين من كل أنحاء العالم، هذه المحاضرة كانت عن النشأة والصبا لشهرزاد، حيث يراها طفلةً خرجت لأم متسلطة تجيدُ تحريك والدها بمكر ودهاء وكيد النسوة، وأن هذا الكيد كان الأعظم ويذكر أن النسوة كُنَّ يضربنَ المثل بكيدها قبل أن تأتي كآية في القرآن الكريم «إن كيدَهُنَّ عظيم»، هذه المرأة استطاعت أن تنقل إلى ابنتها بكثير من الملاحظة والتعاليم غير المباشرة كثيرًا من دهائها، مؤكدةً لابنتها طوال الوقت أن جاذبية المرأة لا تنبع من جمال جسدها ولا من حرارة تأوهاتها في الفراش، وإنما من عقلها الذي يستطيع أن يخمد فحولة أي رجل في حين يظل هو منخدع ويجد في نفسه الرجل الذي لا يُقهر.

تربت شهرزاد في هذه البيئة الصالحة لتفريخ أنثى بذكائها وقدرتها على إدارة الرجل، ولما كانت شهرزاد جميلةً نظرًا لاختلاط جيناتها بجينات الجمال الأوروبي في تفاصيل يصعب قصها؛ لعدم وجود حفريات أركيولوجية تؤكد ذلك، لكنه مجرد تخمين منه، كانت شهرزاد جميلةً، وكان شهريار يحتاج إلى أنثى

يستطيع معها أن ينسى تلك الإساءة التي قامت بها أخرى في حقها عندما خانته، ورشح الكثير شهرزاد لجمالها ولباقتها، وكانت شهرزاد على علاقة ما، لكنه لا يجوز أن يُرفَضَ طلبٌ لشهريار وهو الملك، ومن ثم تمَّ نفي الآخر لصالح السلطة، لكن من الواضح أن شهرزاد كانت تحب هذا الآخر المجهول لدرجة لم تستطع فيها أن تقبل شهريار - زوجًا - فقررت أن تقوم بفكرة الحكايات، واستقبلها العامة بكونها حيلة ذكية لما أشيع وقتها عن شهريار أنه يقتل في كل ليلة امرأةً؛ انتقامًا من تلك التي خانته.

لم يتعرض لهذه الشائعات عن شهريار وقتله لكل هؤلاء الصبايا، لكنه ظل يستفيض ويحكي عن خدعة شهرزاد، وحيلها إزاء علاقتها بشهريار مؤكدًا أن التاريخ لم يذكر سوى الحكايات عن شهرزاد ولم يرد ذكر لأيِّ تطور للعلاقة بينهما كزوجين، كوجود أطفال أو حتى حرمانهما من الإنجاب لأي سببٍ طبيٍّ.

كانت المحاضرةُ مثيرةً، والرجال يحيون الفكرة ويمتدحونها، واستطاع أن يجد مشجعات من النساء، وهي أمام كل ذلك تنظر له وتتأمله ولا ترى منه سوى احتضانه لها ذاتَ يومٍ عندما كانت تشتاقه بشدة.

قطع

تأتي الحكايات العاطفية باللغة العربية مليئةً بالحكايات والمشاهد الساذجة، مثل هذه القصة التي تصر على حكايتها، وهي لا تنتبه إلى أنه يشوه التاريخ ويُعيد فتح ملفات من شأنها أن

تجعل التاريخ كله بعين الذكر، لا ترى فيه سوى ابتسامة ونصف ابتسامة، دفء أحضان وتجاهل طويل ونساء يلتففن حوله، لا ترى فيه أفكاره ومحاولاته للصعود وخط اسمه كرجل تاريخيٍّ، ولا ترى أيضًا تواريه خلف شاشات الكمبيوتر، لا ترى فيه كثيرًا.

هكذا النسوة في بلادنا لا يعرفن من الرجل سوى عينيه وأسفل حزام الوسط، وفي العلاقات طويلة الأمد يعرفن محفظته كذلك، نحن ندرب نسوتنا على ذلك على إلغاء عقولهنَّ، في مقابل أجسادهنَّ، لكنه كان يحب فيها عقلها وحكاياتها، في لحظة اقتنع أن شهريار كان مُحِقًّا عندما جلس كل هذه الليالي يستمع إلى شهرزاد، هو الآخر كان يترك كل ما يفعله وهي تقص عليه حكاياتها ويفرح كثيرًا ويحاول أن يبحث عن أيِّ شيء يمسه في هذه الحكايات، كان يفرح بمحبتها له، هو الآخر لديه هذه الازدواجية كان يفرح كثيرًا بحكاياتها دون أن يفكر في ماضيها والتاريخ السابق لعلاقتهما.

قطــع

وضعت السماعة

تمامًا مثلما يحدثُ في السينما

تمامًا مثلما يحدثُ في السينما بينما يتناقشان يظهر الحبيب القديم في اتصال هاتفيٍّ ليجدد اللوعة والشوق ويغلق بكل المتاريس الطريق أمام الرحالة الجديد، يضرب الآخر كفًّا بكفٍّ، فهو يعلم جيدًا بما أوتيه من علم السابقين أن هذا الحبيب نادر الاتصال في علاقته، فما بالك بعد الرحيل!

لكنه لا يجد أيَّ تفاسير لكل ما حدث إلا أنه شيء يشبه ما يحدث في الأفلام، ولا نجد له مبررًا غير أنه كلام روايات وشغل

سينما لكن النتيجة الواقعة أنه تم إبعاده من هذه العلاقة لصالح العاشق القديم الذي لن يتكرر ظهوره مرةً أخرى قبل فترة تالية.

ليست له علاقة بالسينما ولا هي، سوى من خلال تلك الأفلام بالأبيض والأسود التي تُبَثُّ عبر المحطات الفضائية، وربما بعض الزيارات المناسباتية لدور العرض، لكنه الآن في مأزق وارتباك عاطفيٍّ، لا يمكنه الخروج منه.

يقول أحد نقاد السينما: إن السينما هي توثيقٌ غيرُ مفتعل للتاريخ، وجهة النظر هذه تتعارض مع ما يبديانه بطلا القصة من دهشة، وما تتعامل به الناس مجتمعةً مع هذا الوسيط، غير إننا دومًا نحتاج إلى من نُحيلُ إليه ارتباكات الأحداث حتى نستطيع مواصلة حياتنا.

في اليوم التالي رفع سماعة الهاتف ليحادثها ويسألها عن العاشق القديم الذي انفلت من أذنيها مرةً أخرى دون أن يترك سوى نصف ابتسامة وهو ينهي حديثه في المرة الأولى والأخيرة لاتصاله بها.

لم تعرف بأي إجابة تجيبه، غير بعض دموع، مثلما يحدث في السينما تمامًا، فلماذا إذن ندَّعي أن السينما بعيدةً عنَّا كلَّ هذا البعد! وكل حيواتنا هي لقطات مقتبسة بصورة أو بأخرى من عمل ما؟

يأتي صوته مبتسمًا باردًا -تشوبه مساحة من الحنو- لكنه في آخر الأمر بعيد جدًّا، هذه الهواتف التي جعلت كلًّا منا

يلامس الآخر، يعرفه، يتخيل ابتسامته، كيف لنا أن نتعامل مع كل هذه التطورات! وآدمُ كان مازال يُخفي سوءته بورق الشجر حتى وقت قريب.

آدم الذي خرج من الجنة في أكذوبة أراد أن يلقي باللوم على آخرين حتى يبرر لذريته خطأه في حقهم، ودفعهم إلى الشقاء، في هذا اللوكيشن الكبير المُسمَّى الدنيا.

وكانت حواء والشيطان يتقاسمان الخطيئة، لكن أحدًا لم يفكر في أن سيناريو الخطيئة لزمته بعض من الدراماتيكية ليتعاطف الأبناء مع أبيهم، فكان الهاتفُ اختراعًا قديمًا جدًّا، يحاول البشر أن يحاكوه اليوم، هاتفَ الشيطانُ آدمَ وحدثه عن المتعة، دله على الطريق لكن آدم -المتخاذل كثيرًا- لم يستطع التقدم فأغوى حواء بالمتعة فحفزته ليأكلا.

فقد كلٌّ منهما الآخر وهو يبحث عن المتعة، كانت فقط فرصتهما الوحيدة أنه لم يكن لهما اختيار في غيرهما -ببساطة في ذلك الوقت لم يكن هناك كومبارس أو أبطال مساعدون أو سنيدة- كانت الدنيا كلها على كتفيهما، ونجحا نجاحًا ساحقًا.

تمامًا مثلما يحدثُ في السينما تبكي لوعة الحب واشتياقها له، وتظل تفكر فيه حتى تنام وفي يدها منديل تقطر من دموعها، الفارق في هذا المشهد أن المنديل سيتحول إلى لفافة من المناديل الورقية، وعندما نراها نائمةً، سوف تلتقط عيوننا سلة المهملات ممتلئةً عن آخرها بقطع المناديل المبللة.

لماذا عرف الإنسان الشوق واللوعة ولماذا كانت الغربة والغياب؟

لماذا كانت الحياة بهذه التعاسة بينما آدم هنأ عندما اكتشف سوءته؟

المنطق يقول إنه سعدَ، و إن ملل الجنة والاستقرار كانا سيدفعان به إلى مغادرتها -آجلا أو عاجلاً- فلماذا اختار لأبنائه الشقاء و وهم الشوق والحب.

كانت تدرك أن بها شيئًا مختلفًا، أن كل هذه الانحناءات مصدر جمال، يمكن استغلاله لاسترداد الحق من آدم، عندما ظهرت سوءتهما جذبته تلك الانحناءات المدهشة، فتعلم هو فن النحت، وتعلمت هي فنون الإغواء.

نامت وهي تدرك أن هذه المنحة منه لن تتكرر مرةً أخرى إلا بعد وقت طويل، ولا تعرف لماذا ظهر هكذا دون سابق خبرة منها به، الأكثر غيظًا كان هذا الوافد الجديد، الذي بذل جهدًا كبيرًا ليقترب منها بضع سنتمترات في الميكروباص، ويشعر بدفء ساقيها، محاولاً التعرف على انحناءاتها عن قرب ومُستكشفًا من خلالها عوالم نسائية أخرى، دون أن يخطط لأكثر من ذلك، جاء هذا الاتصال مُعطلاً ومُحبطًا لمحاولاته التقرب، يضحك ويضرب كفًّا بكفٍّ، ويقول «زي الأفلام بالظبط».

تضحك هي الأخرى وتقول «زي الأفلام بالظبط».

آدم الذي تعلم جيدًا أن يلقي برغباته في هوس الأنثى، تعلم أن يمنع ثم يقبل صدى رغباته، يضحك لأنه يعلم جيدًا أنها ما كانت لتفكر بذلك إلا بعد أن أوحى لها.

يتفرج الشيطان ويعرف أنه وُجِدَ ليكون شماعةً للأخطاء يمكن للآخرين أن يجدوا مبررات من خلاله، وهو لا يمانع فبالضد تُعرف الأشياءُ.

نعود لمقولة يوسف بك وهبي

(ما الدنيا إلا مسرحٌ كبير)

هذه الجملة تتعارَض تمامًا مع وجهة النظر المسترسلة منذ البداية، فهل الدنيا مثل السينما أم مثل المسرح، في الحقيقة إن كليهما يحتاج إلى متفرجين وهذا الأمر أحيانًا غير موجود، إلا إذا اعتبرنا أننا نقوم جميعًا بأدوار تبادلية، و إن الفضول يدفع بعضهم لتتبع حكايا في سياقات أخرى قد لا تعنيهم.

الدنيا مثل فيلم جنسيٍّ من تلك النوعية التي تقوم على حكاية، نحن جميعًا نشاهده ونعلم أنه فيلم جنسيٌّ، لكننا بصورة أو بأخرى نتواطأ مع الحكاية الممهدة لإقامة علاقة حسية بين بطلين من الأبطال، وستجدنا جميعًا مشدودين إلى تلك الطريقة التي قبّلها بها، وهذه اللمسة التي لمستها له، ونخرج من حكاية إلى حكاية أخرى، متابعين جيدين جدًّا لكل تغير يمكنه أن يجعل الآخر طرفًا في علاقة حسية معنا.

البعض يمكنه أن يصطنع العفة، ويتجاهل هذه الرغبات لكنه يسقط عبدًا لها في أحلامه، ونحن بدورنا نشاهد هذه الأحلام ونضحك؛ لأنه لا أحد يفلت من اللعبة أبدًا.

لاحظ نظرات الفتيات إلى سوستة البنطلون لدى الرجل، في محاولة حسابية لمعرفة حجم العضو، وتلك النظرات الشرهة لحجم الانحناءات في جسد الأنثى لتحديد حجم الثديين، والمؤخرة.

كلها إجراءات لعمليات حسابية، نسبة كبيرة من أصحابها لن يتأكدوا أبدًا من صحتها، لكن الجميع مُصِرٌّ على اختبار مهاراته في هذا الصدد.

بعضهم يسخر من كوننا جميعًا مشاركين في صنع فيلم سينما كبير، والأكثر سخريةً هم هؤلاء الذين لا يقتنعون بأننا جزء من فيلم جنسيٍّ، فلماذا خرج آدمُ من الجنة؟

تمامًا مثلما يحدث في السينما، ستحاول أن تنهي حالة البكاء وتثبت لنفسها أنها قوية، وفي لقطة تجريبية مثل أفلام يوسف شاهين، ستمحو رقم هاتفه من على محمولها، وهي تعلم جيدًا أنها تحفظه، لكن ستقوم بهذه الخطوة الإجرائية لتثبت لنفسها أنها قادرة على الخروج من شرك محبته.

ستبدو في غاية النشاط وهي تخرج في صباح اليوم التالي وسننسى أنها تلك الفتاة التي كادت تموت بكاءً في المساء، هذا لأن حكايتها لابد أن تكتمل من خلالها هي فقط، وهي تعلم

ذلك جيدًا، تبتسم وترتدي رداءًا توضيحيًّا لهذه الانحناءات، لا يسبب كثيرًا من الإرهاق لمثل هذه العمليات الحسابية المُشار إليها سابقًا، وسوف نواصل المتابعة في دور عرض إقليمية جدًّا مقتصرة على بعض أشخاص مشاركين في حكاية، ومتقاطعين مع حكايات أخرى بعضها سوف تبثه المحطات الفضائية للأجيال التالية، وهم يسخرون مما يرونه لسذاجته المفرطة، وربما لأنهم سيكونون أكثر وضوحًا مِنَّا في التعامل مع السينما.

بلا أوجه للمقارنة

سوف أجلسُ قبالتك وأحكي عن رجال مرقوا من الحلم ولم يتركوا بعدهم أثرًا يمكن أن نلاحقهم به، وأحكي خيالات وأنا أرقب شفاهك وأتقصى اتجاهاتك، دونَ رغبة أكيدة في تقبيلك. أمسكُ قصاصات الورق وأظلُّ أتحركُ جيئةً وذهابًا من أمام كرسيه عله ينظر إليَّ بوصفي امرأة حانَ وقتُ قطافها، وهو لا يعبأ بأيِّ أنثى في المكان، ونظلُّ نحن النسوة نحكي عن إنسانيتنا وضرورة تجاهل الجزءِ السُّفليِّ مِنَّا.

كنت فقط أحتاج لامرأة صادقة تؤكد هذه النية المبيتة للتخلي عن الذكر في حياتها، لم أجد واحدةً ترغبُ في ذلك رغمَ كلِّ التشدق بالنسوية والاستقلال.

كُنا نجلسَ سويًّا تعلمّني كيف أدخنُ الحشيش، وهي تحكي أنها لا يمكن أن تستغني عن الرجل، فهو -بقدر ما يتحكم بها- أيضًا يوفر لها مساحةً آمنةً للخروج والتداول في هذه الحياة. لم أفهم منطقها لكنني كنتُ ألتمِسُ لها الأعذار وأنا أسمعُ عن كلِّ هذه القيود التي ظهرت -فجأةً- بعد أن خلع الرجلُ عباءتها وانصرف عن زيارة منـزلها في زيارات رسمية.

أعودُ مرةً أخرى لملاحقته -في هدوء- وهو يتحرك بين المكاتب في خِفَّةٍ لا تُناسبُ عُمرَه،

ولا أعرفُ «كم عين ترمقني الآن؟»

يحكي الجميع أن السادات كان يدخنُ الحشيشَ ويُرجِعون قراراته الصائبة إلى هذه الفكرة، ولا أعرفُ على وجه الدِّقة «كيف يمكنُ لإنسان أن يستخدم مُخدِّرًا فتخرج منه قرارات صائبة! » لكنني عندما جربتُ لم أشعر بأيِّ شيءٍ، ولم يتغير فيَّ أيُّ شيءٍ، كنتُ فقط أفكرُ فيه بحذر؛ خوفًا من الوقوع بشركه.

استيقظتُ متعمدةً مراتٍ عديدةً؛ لأنني كلما نِمتُ كانت أطيافُه المتعددةَ في كلِّ حلم، ولا أعرف كيف قفزَ -فجأةً- إلى أحلامي، بينما هو لا يعبأ بي على الإطلاق!

أعاودُ العملَ، و أحرصُ على البقاء كلَّ ساعاته في محاولة للتقرب منه، أمُرُّ بجواره، أقفزُ على ظله، وهو لا يهتمُّ، منذُ ساعات تركتُ ظلي يحتك بظله في مراوغة أنثوية، استسلم لها الظلُّ في عناق طويل قبل أن يقفز هو من مكتبه متجهًا إلى الحمام؛ فابتسمت كلُّ النسوة بالمكان ونظرنَ لي نظرةَ امتنان.

أقررُ أن أقضيَ اليومَ ساعات طويلة من الليل خارجَ المنــزل، دونَ أن أكترثَ بأيِّ دورية، فمادامت معي سيارتي لن يحاول أحدٌ توقيفي وسؤالي عن الهوية؛ هم فقط يسألون المترجلات، متفحصين إياهُنَّ بدقة ومحاولين نَيلَ أيِّ شيءٍ كعربونٍ للمرور، بغض النظر هل هذه مهنتها أم لا، فقط عليها دفعُ الرسوم.

أما أنا فلن أخضع لهذا الفحص، نقودي تقفُ سدًّا أمامَ تسلُّطِهم و غباءاتِهم المستديمة، أفكرُ في التدخين، واحتساء الخمر، وعمل كلِّ شيءٍ لا يسمحُ به المجتمع للمرأة، أحاولُ حسمَ هويتي مقابلَ عنجهيته وغروره وهذه النبرة الجافة في صوته في المرَّات الخمس الأخيرة التي تحدثنا بها.

أقود السيارة بسرعة كبيرة لا تُناسب هذه الشوارع الفارغة من أهلها، فقط أجري كي ألحق بساعات العمل التالية والتي لن تشهد تواجده لأنني سمعته يأتي متأخرًا.

لنا شفاه متقاربة في الحجم ربما شفاهه أكبر قليلاً تسمح باحتواء شفاهي في قبلة حميمة جدًّا تكون مفتتحًا لعلاقة

متحررة لا تعترف بالتقاليد الظاهرية للمجتمع، وتتواطأ مع كلِّ ما هو متاح ومُمَارَس في البنايات الصامتة دونَ اعتراف بما يقترفه أصحابها.

سوف أسمح له بهذه القبلة فقط ليعرف بأنني غير أيِّ أنثى، رغم إنَّ المثل السائد أن الجميع تتشابهن في الظلام، لا أظنُّ أيَّ وجه شبه إلا إذا تعاملنا مع الفكرة - مُجرَّدةً - بأنهُنَّ جميعًا مجردُ فتحة تتسعُ معَ الزمن والاستخدام، فقط نزعنا الإحساس والحياة وكلَّ ما هو حسيٍّ، تركنا فقط هذه الدائرة للولوج إليها.

سأمُرُّ أمامه كالعادة وأختلقُ أيَّ سبب لأتبادل معه أيَّ عبارات جوفاء تشير إلى أنني أفهم وأن لديَّ مشروعاتٍ للتطوير وخُططًا لتحسين الأداء، وستعجبه الكلماتُ ويثني على أدائي وأفكاري ثم يرشدني بعدها لآخر لأنه ليس ذا صلة بكلِّ ما أذكر، أحركُ رأسي لأوضحَ له فهمي ذلك، لكنني و في عبارات مختزلة أوضح أنني أعتني برأيه في كلِّ حركة، لا يبدو أنه فهم ما أقول لكنه سيبتسم ويعاودُ النظرَ في أوراقه.

أدمنتُ تدخينَ الحشيش مع صديقتي، وفي كُلِّ مرة تسألني كيف حالي لكنني لا أشعر بشيء، فقط أفعل ذلك لعمل شيء مختلف.

في المساء أخرجُ من شقتي دونَ أن تتحرك أعين لرصدي ولومي على هذا الخروج المتـأخر و أعدو نحو السيارة، أقودهـا لمناطق مجـــهولة وأكتشف فتيـات وسط البلد لأعرف

كيف يتم الاتفاق على السعر وترتيب الليالي الدافئة في أحضان نساء لا يعرفنَ الدفء، أضحكُ وأنا أرقبُ هذه الاتفاقات، فتقترب منِّي إحداهُنَّ تظنني أبحثُ عن فتاة تقضي معي الليلة، وأضحكُ بداخلي أنه حتى ذلك أصبح مُتاحًا، وأفكرُ في تنفيذ الفكرة فهي أمرٌ جديد.

لكنني أخشى مصاحبةَ فتاة لا أعرفها إلى بيتي، فأنصرفُ -مُتجهةً إلى الكورنيش- وفي هذه المرة أقودُ ببطء، أتلمَّسُ نسمات النيل بتلك الرائحة المشبعة باليود والتي تذكِّرُني برائحة البحر.

كان اليوم الثالث من الإجازة عندما فررتُ من المنـزل لألتقي به، وكنتُ أركبُ الترامَ يجاورني -واقفين - نتحدث عن الامتحانـــات وعن مشروعاتي المستقبلية وكان التــرامُ يتأرجحُ فاقتربت يدُه من يدي، فقام برفعها قليلاً مُعتذِرًا عن هذا الخطأ، وقتها سألتُ نفسي هل يحبني فعلًا وجاءت الإجابةُ بعدَ فترةٍ عندما اعتذر عن إكمال الارتباط لأسباب عبيطة.

ملأت هذه الصورةُ ذاكرتي وأنا أعبرُ من المعصرة ربما لأن النيل في هذه المنطقة له رائحةٌ مميزةٌ جدًّا، كذلك ترسانة السفن التي تعمل هناك تُشعرُني أنني قريبةٌ من البحر أحيانًا.

تعددت الشائعاتُ وتنوعت حولَ غيابه و إجازاته المفاجئة، وجاءت بعضُ الشائعات عن مرض له أو لأحد من أهله، وأخرى عن زواج منــزلي أو آخر لحبيبة مجهولة، وظلت السيناريوهاتُ المختلفةُ تتعددُ وتتنامى ولا أحد يعرف الحقيقة.

الليلةَ كان مختلفًا؛ جلسَ في سيارته وظلَّ يتحدث إليَّ دونَ أن يدعوني معه، ولم أكن أفهم هذا السلوك، فقط كان الواضح أنه لا يعبأ بي في دائرته، استيقظتُ يملؤني إحساسٌ بالغيظ والغضب، لماذا يرفضني بهذا الشكل، ويرسلُ لي رسائله المشفرةَ عبرَ أحلام لا تنقطعُ منذ أيام!

كنتُ أفكرُ أنها ربما هي رسالة سماوية حتى أملأ رأسي بخيالات أخرى، ولا أصاب باكتئاب عندما يأتي مُرتديًا خاتمَ الزواج، لا أعرف.

قمتُ بقصِّ شعري وتغيير لونه واستخدمتُ بلوزات أضيقَ ومظهرًا مختلفًا في كلِّ شيء، حتى سيارتي قررتُ تغييرَ نوعها ولونها، فجأةً هكذا بلا مبرر.

فوجئ الجميعُ بي حتى هو عندما عاد من إجازاته قاضيًا على كلِّ السيناريوهات بالفشل، نظر إليَّ مُتعجبًا دونَ أن يعلقَ بكلمة واحدة، سوى مرة سقطت منه جملة «كُنتِ الأول أحــلى» هذه الجملة التي كشفت عن مراقبته لي، وملاحظته لهذا الاهتمام، كشفت أنني لم أكن وحدي من تقيسُ شفاهها بشفاهه، و أنه هو الآخر ربما كانت لديه خيالات لي في أوضاع مختلفة.

بِتُّ أرددُ لنفسي هذه الجملة كثيرًا وأنا أصففُ شعري بطرق مختلفة، وأنا أهربُ من عيون المتلصصين عليَّ، كانت هذه الجملةُ بدايةً جيدةً لخروجه من أحلامي، وانصرافي عن تمنِّي قبلته.

قابلتُ صديقتي ودخنتُ معها الحشيشَ كما كُنَّا نفعلُ لفترة طويلة، ذكرتُ أشياءًا عديدةً عن التداول والإتاحة، ولم تُذَكِّرني هذه الكلماتُ سوى بالمعلومات ومقال قرأته عنها.

ابتسامة ودفء للموت

سوف أرفعُ سماعةَ الهاتف وأتصلُ بآخر أيًّا ما كان، سوف أقولُ له كلامًا في أيِّ موضوع و أضحكُ كما لم أضحك من قبل، و أستطردُ في المكالمة، وأحاولُ ألا تنتهي، لكنه عندما يصمتُ سأجدُني مُضطرةً للاستئذان و إنهاء المكالمة بعد إعطاء مُبرر منطقيٍّ للاتصال، سأضعُ السماعة وأنظر إلى صدري وأدلكه حتى أزيل طبقة الجلد التي تحمل كلفَ الحمل، وأعيدُ النظر إليه بعد أن استعاد طبيعته.

عندما يلتهبُ من كثرة التدليك، سوف أتركه وأنظرُ إلى ذراعي وأكررُ نفسَ الفعل، لكنني لن أكملَ، أتحركُ في الشقة الآن، أسمعُ صراخَ ابنتي، وأراها صورة في جهاز الأشعة، يقولُ الطبيبُ إنها فتاة، وأدعوها ريري أو جيجي و بشيء من الصمت كانت ترقدُ في أسفل بطني و أشعرُ بألم حادٍّ ألمسُها، أداعبُها، ألمسُ بطني برفق هكذا كنتُ أداعبُها، أتحدثُ معها، كيف ستكونُ ملامحُكِ، وهل سينتصر قانون مندل وتأخذين شعـــري الجافَّ وعيوني السوداءَ، أريدُكِ وسيمةً مثل أبيكِ، كانت تسمعني وتداعبني، تهربُ من تحت يدي إلى جهة أخرى، لكنها تحب أباها أكثر منِّي، كلما وضع يده استكانت وهدأت.

كانت تداعبه أحيانا فتهربُ منه وتنتظرُ أن يبحث عنها بلمساته، وكان يفعلُ، كنا نداعبُها سويـًا، وأقولُ له: إنها هادئة ولا تتحرك كثيرًا، اليومَ جلست في بطني بلا حراك.

ألمسُها أحركُها فلا تتحركُ، كنتُ أسألها عما بها فلا تُجيبُ، سألتها عدةَ مرات وعندما نظرتُ حولي كنتُ أرقدُ بي ألم وهي غير موجودة، ظلت مجردَ صورة في جهاز الأشعة، كانت بيضاءَ بشعر ناعم وعيون رمادية مثل عيون القطط وجسد قُدِّر له أن يكون جسدَ أنثى منذُ اللحظات الأولى، جسدُها دافئ جدًّا، لم يعرف برودة الموت، حملت كلَّ حرارة جسدي وهي تتركني أتحسس بطني، تسعُ فتحاتٍ يجمعهم خطٌّ أفقيٌّ، أشبه بجرح غائر

يهددُ بالكشف عن عوراتي، أتحسسه برفق وأجمعُ آلامي صامتةً، أضعُ المرآة أمامي لأراه بوضوح، وأنظرُ في المرآة.

سوف أراها جميلةً ككل أطفال الإعلانات، مبتسمةً جدًّا، تلعبُ كعادتها عندما أحركَ يدي.

الآن ستقولُ ماما، لا ستقول بابا أولاً؛ لأن الباء أسهل في النطق، ولن أغضب منها أو أغار، سأتركها تقول بابا فقط، تقول أيَّ شيء لكنها تُصِرُّ على الصمت، و لا تتحركُ إلا في مساحات سوداء هي كلُّ ما يتيحه جهازُ الأشعة، لا يمكنني رؤيتها كاملةً؛ فهي الآن كبيرة، أكبر من عدسة الجهاز، هذه رأسها وهذا جسدها، لها ساقان جميلتان كساقي أليس كذلك! أسميناها ريري، سألتهم عنها، أفاضوا في وصفها جميلة كأمها، ولم أصدقهم، وضعتُ يدي على صدري الممتلئ باللبنِ والدافئ جدًّا، نصف حبة لمدة عشرة أيام تقضي على هذا الغذاء الذي تنتظرينه يا صغيرتي، وأنا مضطرةً للموافقة لأنكِ ما زلت داخلَ جهاز الأشعة ترفضينَ الخروج.

ضمك أبوك إلى صدره دونَ علمي حتى لا أغار ولمس دفئك، بينما أنظرُ إلى جهاز الأشعة وأراك يافعةً، تركضين لتلحقي بلمساتي على بطني التي امتلأت عن آخرها بكِ.

قال كُنتِ صغيرةً جدًّا بلا ملامح، وأعرف أنه ينكر نقل ملامحي وأذكره أن لي عيونًا جميلةً، ولا مشكلة للشعر الجاف الآن سوف أجعلُ منكِ أجملَ بنت في الدنيا، فقط تخرجين من جهازَ الأشعة، ألمس دفئك بيدي.

سوف أدخل كل الحجرات، أبحث عن صوتك، وأعيد النظر إلى صدري بلا كلف للحمل ولأفخاذي التي تغير جلدُها هي الأخرى وذراعي، سأنظر جيدًا وأحسب حجم التناقص، وأترك ذلك كله وأعاود البحث عنك مرةً أخرى.

سوف أجلس بجوار الهاتف وأبحث عن رقم أيِّ إنسان يمكنني محادثته لفترة أطول من بحثي عنك، سوف أتصل وأستطرد في المكالمة، سأتحدث عنك وعن دفء جسدك، وعيونك الرمادية التي تشبه عيوني، وسمرتك التي لم ترَ الشمس، سأستطرد في المكالمة وأحاول ألا تنتهي، لكنه عندما يصمت، سوف أنهي المكالمة وأبحث عن صورك على جهاز الأشعة، أتأملها كثيرًا وأتحسس تسع فتحات وخطًّا مستقيمًا، وأغمض عيني لألمس دفء ساقيك وأبتسم لكِ.

قوس قزح الذي لم يظهر إلا مرةً واحدة

.. بطريقة مُفتعلة تبدأ الحديث الرومانسيَّ المستوحى من تقاليد الأربعينات الغرامية، مُحاولةً أن تلفت انتباهه، لكنه سيتجاهل هذا الافتعال بشكل كوميديٍّ، ويطيِّر محاولاتها في فضاء الوقت.

بدأ يرسم دوائره ويضع نقطة لكل شخص يعرفه، الدائرة التيْ كان قطرها خمس سنتميترات.. فقط خمس سنتميترات عجز عن ملئها، لأنه كان يفكر ماذا تعني هذه المعرفة..

هل هو تذكر الملامح، تبادل التحايا في المقاهي والطرقات وردهات العمل، أو تبادل ابتسامة صامتة، أم هم الأشخاص المقربون منه، حتى كلمة «المقربون» هذه تثير بداخله، ماذا تعني هذه «المقربون»؟

الخمس سنتيميترات أصبحت شاسعةً جدًّا حتى إنها لا تمتلئ أبدًا.

بهدوء التفتَ إلى افتعالها وابتسم ابتسامةً من نفس الزمن المستوحى منه افتعالها.

لم تكن لديها شيء تفعله سوى الانصراف.

وهو أمسك بدمية لسيارة وأخرى لسمكة، كانت هدايا لوجبات سريعة، ترك مقعده وجلس إلى الأرض يدفع بالسيارة ثم يحاول اللحاق بها واستمر يكرر ذلك حتى تذكر السمكة لكنها كانت بلا فائدة لأنها لا تتحرك إلا بحركته هو، لا يمكنه ملاحقتها كالسيارة ولا مشاهدتها سوى ساكنة، حتى إن وضعها في الماء فلن تتحركَ أيضًا.

نحَّا دمية السمكة جانبًا، ثم رفع السيارة بجانبها وعاود الجلوس إلى مقعده.

إلى مكتبه دخل اثنان من النقاط الموجودة بالدائرة، كانا يثرثران ويحتكمان إليه بوصفه «الفنان» حسبما يطلقون عليه.

- مارأيك هل تعتبر تامر حسني فنانًا؟

- فنان؟! هكذا يكون الفنُّ قد انتحرَ؟

- «كل المعجبين دول وكل المبيعات الضخمة لشرايطه ومش فنان؟»

استمع إلى مداخلاتهما بشأن تامر حسني، ولم يجد ما يعبر به، فقط أجاب باقتضاب:

- الحكاية وجهات نظر.. والفن أذواق.

لم تُعجب إجابته أيًّا منهما فانصرفا غير ملتفتين له وهما يشُكّان في قدراته الفنية.

لماذا أطلقوا عليه الفنان؟

ربما أراؤه.. وجهات نظره، كل ذلك يجعلهم يقولون عنه إنه يفهم أو مثقف، «لكن اِيه حكاية فنان دي؟»

ربما هي المرة التي قام فيها بتصوير زملائه في إحدى حفلات التأبين، إبانَ رحيل زميل عن العمل.

قالوا وقتها: إن الصور كانت تحفة.

لم تكن له أيُّ علاقة بالتصوير.. المسألة كانت معه محض مصادفة.

بيده قلم يحركه في دوائر على ورقة بيضاء.

هذه الورقة البيضاء انتحر فيها اللون الأبيض.

جملة «أكلاشيهية» جدًّا تشبه كتابة الثمانينات واهتمامهم المبالغ فيه جدًّا باللغة و مفرداتها والجمل المعقدة.

اللون الأبيض مازال موجودًا، حتى فكرة ألوان الطيف و أنها مجرد تحليل للون الأبيض كانت فكرة نسبية بالنسبة له.
على مكتبه إحدى البلورات لا يهتم بمصدرها الآن.

أخذ هذه البلورة ووضعها أمام الضوء القادم من النافذة، وحسب النظريات الفيزيائية مرَّ الضوء عبرها فانكسر وشاهد ألوان الطيف السبعة.

إحساس لا بأس به يُسهم قليلاً في دفع الثقل من على صدره.. لكنه انطفأ بعد أن تأكد من عدد ألوان الطيف، وأثبت لنفسه صدق النظريات الفيزيائية.

أعاد البلورة إلى مكانها.

ثم وجد نفسه متورطًا في التفكير بها، لماذا كانت مُصِرَّةً أن ترسم ابتسامةً على وجهه، ولماذا تعتني به؟

هو الآخر متورط في التفكير بها، لكنه لا يستطيع أن يقوم بتجربة فيزيائية ليعرف في أيِّ اتجاه يفكر بها، لن تتركه قبلَ أن يعترف لها أنه يفتقدها.

لكنها لا تدرك أن فعل الفقد -بالنسبة له- ذو معنى مختلف، الناس لديه مجرد ملامح وخيالات يمكن أن تطفو في عقله في أيِّ لحظة، لذا فهو لا يشعر بأيِّ فقد تجاه أيِّ أحد، ببساطة يمكنه أن يحولها لمجرد صورة ثنائية الأبعاد كلما تذكر أنها غير موجودة، وقبل أن يتحول هذا التذكر إلى إحساس تكون أمامه فقط مجرد صورة ثابتة لا تتحرك.

شيء ما يشبه حكايات الأطفال التي كانت تُذاع في برامج الأطفال في منتصف الثمانينات (صورٌ مرسومةٌ تتحركُ أمام الكاميرا وصوتُ امرأة يحكي تحركات متخيلة عن هؤلاء الأشخاص أو الحيوانات أو حتى الأشياء في هذه الصور).

ربما من وقتها صارت كلّ الأصوات والتحركات مُتخيَّلةً، والثابت في عينيه هو الصورة ثنائية الأبعاد.

يبتسم من إلحاحها ولا يعرف كيف يشرح لها هذه الفكرة، هي لا توحشه ببساطة... لا يحبها؟!

الأمرُ ليس كذلك أيضًا، فعل الحب لا يحمل أعراضًا محددة يمكن عقب ظهورها إلصاق تشخيص الحب بصاحب الأعراض، لكن ليقل إنها في حياته.

مرةً أخرى يعود لدائرته ذات الخمس سنتيمترات -قُطرًا-، ويرسم عدةَ دوائر أصغر وأكبر.. عدد لا بأس به من الدوائر على أوراق بيضاء.

ويبتسم كلما تذكر عبارة «انتحار اللون الأبيض»، ويحكي لنفسه حكايات عن قصة لها نفس العنوان.

انتحار اللون الأبيض.. تضايق اللون الأبيض لأنه لون الضوء، والضوء غير مرئي، لا يراه أحد لكنهم يشعرون به ويستطيعون من خلاله رؤية كل شيء، وعلى الرغم من قيمته العظيمة فالناس لا يرونه.

هذا هراء، الناس ترى اللون الأبيض في تجلياته في الأشياء، في الورق، الملابس، ألوان الطلاء، إذن نصحح المعلومة، لابد أن ينتحر الضوء، وليس اللون الأبيض، فالضوء هو مصدر ألوان الطيف، وقوس قزح الذي لا نراه في المدينة.

كم هم الأطفالُ سُذَّج، كانت مثل هذه الملاحظة ستمرُّ مرورَ الكرام، وأنا طفل وأصدقُ -كالأبله- أن اللون الأبيض سينتحر، ووقتها كنتُ سأفرح لأن أصابع الطباشير الملون ستصبح هي السائدة، وليست استثناءًا، ولأن كراساتنا ستكون ملونة ولن أرتدي قميصًا أبيض في الزيِّ المدرسيِّ، يمكن ببساطة لأمي أن تعرف أن أحدهم قد دفعني إلى الحائط أو أسقطني على الأرض.

على كُلِّ الأحوال فرحتي لن تكون سوى خط منحنى في وجه طفل صغير في اللوحة الثابتة قبل أن تتحرك وتأتي الصورة التالية لتكمل المذيعةُ، لكن طبعًا ستستنكر هذه المذيعةُ تلك الفرحة، لأنه من وجهة نظرها كيف يفرح أحدٌ لأن اللون الأبيض سينتحر! وبالتالي سوف تذهب كل الألوان ويعيش الناس في الظلام، وهي بالطبع لا تضع أيَّ فوارق بين اللون الأبيض والضوء.

الأمر كله مجازٌ، لكنني بابتسامتي سأكون مثالاً سيئًا لمن لا يفهم مع أن اللون الأبيض يمكن أن ينتحر في أيِّ وقت أسفل فرشاة بأي لون.

في لقطة «توتالة» كما يسميها أهل السينما تظهر هي
وهي تتحرك نحوه.. يقلق تنقلب نهايتي الخط المنحني إلى أسفل
ويسارع بالانشغال ربما تجده مُنهمكًا في العمل فلا تلاحقه.

أن تحلم

لا تنتظر أن تمتدَّ يدُ أحدِهم لتربتَ على كتفِك، وتمنحك بضع كلمات وابتسامةً يشوبها الودُّ، لا تفعل ذلك، واحرص أن تصنع عالَمًا لا يمكن اختراقه لأكثر من عشرة أشخاص.

لماذا ترقرقت الدموعَ في عينيك وأنت تتحدث عن والدك بينما تعلو شفاهك ابتسامة ربما تشي بعدم الاكتراث بفعل الموتِ، كنتَ وقتها محتاجًا لنكوصٍ يردُّك لمرحلة الرضاعة.. لا تفكر و إنما تضع حلمة ثديها الممتلئ بفمك وتعيد كل ذكريات الوحدة إلى رأسك دفعةً واحدةً.

ثديها..؟! الهاء تعود على أيِّ امرأة يمكنها أن تحتضنك لبضع دقائق دونَ طلب مقابل ماديٍّ لذلك.

دموعك هذه لا تعني شيئًا حتى لك، فلماذا تتخيل أنَّ يدًا ستمتدُّ -فجأة- إلى كتفك بينما أنت تسرع الخُطى للحاق بآخر قطار للمترو.

انتظر.. انظر إلى المرآة.. هذا أنت وقد تجاوزتَ العقدَ الثالثَ من عمرك وتهرب لتغادر السنوات.

سوف يجلس بكل هدوء على مقعد وحيد في ميدان التحرير، وينتظر موعدًا لحبيبته التي يتلاشى كلُّ ما يخصُّها في ذهنه ولا يتذكر منها سوى المحبة.

قالت لك وهي تربط شعرها أنها تتعامل معك بوصفك «حلم» لا أكثر.. لم تكترث لكلماتها ولم تنتبه إلى أنك لن تعرف من كل مشاعرك نحوها شيئًا.. ربما اختلاجة صوت، أو كلمة رقيقة على فترات بعيدة.

فلماذا كان فعل الحب المنتظم بينكما بشكل روتينيٍّ وكأنكما صرتما زوجين، الفارق الوحيد أنك لن تدير ظهرك لها عقب الانتهاء وتنام.

أغمض عينيك هل ترى بيت أمك، وأخاك الملتصق بالشرفة، وحنينَ والدك إلى السينما، والزيارات المتكررة لعمك وهو يتحدث عن الإخوان و «عمايلهم»!

هل اكتملت الصورةُ في ذهنك؟

كانت تقصد ذلك وهي تقول إنك حلم، ففعل الحب يبعدها عنك، يجعلك بداخلها، فهي تتمكن من الاحتفاظ بملامحك لأطول فترة ممكنة في عينيها.

تحكي عنكما.. وتقول إنك مدهشّ، لطيفٌ، وتمتلك عينين مدمعتين، لكنها تضحكَ وتُكملُ إنك لا تبكي أبدًا.

ربما كان لك برجّ مائيٌّ على الرغم من إشارات تاريخ ميلادك التي تقول عكس ذلك.

في كلِّ الحالات لم تكن الأمهاتُ قديمًا مخلصاتٍ تمامًا في تسجيل تواريخ ميلاد أبنائهنَّ بدقة.

حالة من الفقد تبرر بحثك عن هذه اليد على كتفك، وهي ستلتف حولك، وترغب بك مرةً أخرى وأنت غير مكترث، تضع يدها على كتفك، وأنت تبتعد، فتجمع صدرها بين ذراعيها وتبتعد.

جملة اعتراضية

اليومَ أموتُ حين أحاولُ عبورَ الطريق الذي يبدأ بالنفق، وسيحاول المارةُ جمعَ رفاتي المتناثرة، ويقضون وقتًا لا بأس به في الوصول إليَّ.

«إحساسٌ بالغصة يملأ حلقي؛ إذ كيف تكون موتتي بكل هذا السوء! لكنه القدر الذي اختار لي من قبل مكانًا ووقتًا لم أحبهما».

المارةُ حائرون في التعرف عليَّ و إبلاغ أهلي، بينما زوجي يجلسُ قلقًا لأسباب تأخيري ويكيد لي عندما يراني، لكنه

وبعد وقت قد يتساوى مع الوقت الذي يستغرقه المارةُ في الوصول إلى هويتي، أو قد لا يتساوى سوف يفكر زوجي في الاتصال بي على هاتفي المحمول لكن هذا الهاتف كان أولَ أهداف المارة، حيث وضعه أحدُهم في جيبه، وظلَّ زوجي قلقًا لا يعرف كيف يصل إليّ.

كنت لا أشعر بساقي، ولا ذراعي، ورأسي بها ألَمٌ شديدٌ يدور بها حديث «سلفادور دالي» عن الإرادة القوية، وعن نيتشه، نيتشه الذي سبق وتحدث عن كيف يختار الانسان مكان موته وميعاده، لكنه هو نفسه لم يستطع تنفيذَ فكرته، وترك لنا ألغازًا نشفرها في المساء، وتركني أفكر في هذه العبارة كلما هممتُ في عبور الشارع، فأشعر أنني سأموت هنا أسفلَ كلِّ أحلام المارة -مسحوقةً بأحذيتهم- دون أن يكون لي حقُّ الاعتراض، سوف تشكو كراتُ دمي سحقَ الأقدام لها وسأساندها.

كنت أحتاج لأن أعيش قليلاً، فلديَّ كثيرٌ من الأحلام لم أنجبها بعدُ، لكنه الوقت المناسب لآخرين حين يعلمون بموتي.

زوجي هذا القلِق الذي أمضى الدقائق السابقة يفكر أين ذهبتُ، ويتخيلُ لا مُبالاتي في التأخُّر دونَ الاتصال به، لن يجد مبررًا لغلق الهاتف سوى أنني أهفو لنـزواتي القديمة، فربما أحادثُ آخر ولن أجادله حول ثقته فيَّ، فهو قلِقٌ بشأن غيابي غير المبرر ولا يعرف كيف يتصرف.

سوف يجربُ الاتصالَ بأصدقائه.. بينما أنا تتجمع أجزائي فوق عربة تعلوها ملاءةٌ بيضاء في أحد المستشفيات الرخيصة.

وأنا مُكَوَّمةٌ هكذا تنقصني إحدى أسناني فلا أبالي بها، وأتذكر زوجي القلِقَ، يحاول أحدُ العاملين المساعدةَ؛ يمسك بنوتة تلِفوناتي، وتصدرُ منه آهةٌ تعجب عن كل هذه الأرقام، يتحيَّرُ لكنه يطلبُ أولَ رقم في حرف الألف؛ لا يحتاج إلى مفتاح الزيرو، ويسأله المجيبُ عني.

أخيرًا يتمكن زوجي من معرفة مكاني.. تُراه يستطيع أن يحمل أجزائي ويعود بي إلى المنـزل؟

سوف يتحامل وينسى كل محبته لي ليتمكن من التعامل معي، يتذكر طفلتنا التي حملها من قبل ويضم أجزائي ويبكي في هدوء على رأسي، لا أستحق كل ذلك من وجهة نظره، ربما ما تزال روحي أمامَ النفق تتوعد كلَّ السيارات المسرعة وتُشيرُ إلى السائقين مُلوِّحةً بدمائي، فيبهت الجميعُ وتبطئ حركة السيارات، يصاحب الأمر أزمة مرورية ضخمة في العجوزة، وشوارع ساكنة تنتهي بميدان الجيزة، لا تليق بي هذه الموتة، أستحقُّ أن يلتئمَ جسدي.

لكنه لن يحدث، يُحضِرُ زوجي إناءَ الغسيل، طبق كبير من البلاستيك كنت أستخدمه في شطف الغسيل، ويمسك بأجزائي يغسلها جزءًا جزءًا، ثم يجفف كلَّ جزء ويعطره بعطره الخاص.

يجمع كلَّ الأجزاء ويفكر أين سيكون قبري، و ينسى أن لي ابنة

ترقدُ في نصف متر منذ أشهر قليلة، سوف يذكره أحدُ المارة ويتنبه، لن يستخرج لي شهادة وفاة ولن يخبرهم في العمل بموتي تاركًا كل مستحقاتي المالية للا أحد.

سيرتابُ أهلي به ويتذكر الأصدقاء مشاجراته ويسألونه عنّي، لكنه يراني لم أمت بعد، ها هي صوري تملأ فراغ الحوائط كما لم تكن من قبل، و اسمي هو كلمته السرية في ملفاته وبواباته الإلكترونية سيضع دميتي على سريره وينشر أنفاسي مرةً أخرى. سيسمع صوتي في البيت، وحين يصحو لن يجد آثارًا لقبلتي قبل أن أذهب إلى العمل.

الموتُ هو وقتٌ للراحة لنستكمل حيواتنا مرةً أخرى و أنا في هذا الـ break أستاءُ من وحدتي، و صغيرتي على قربها منّي تلهو مع ملائكة صغار تناديني أن أعدو خلفها، وأنفاسي المتقطعة لا تساعدني.

أنظرُ لكلِّ الأصدقاء الذين تخلوا عنّي في وحدتي، أجدُهم منشغلين لم يشعروا بموتي، كما لم يشعروا بحياتي، لماذا إذن كنت أهبهم محبّتي و وقتي؟، لا أعرف لكنني أنظر لهم شذرًا من هذه العلا، وألمح زوجي مُنكسرًا لفترة قصيرة لن تطول، حتى يلتقي بمن يراني فيها، أيام وسوف ينساني وينسى ابنته التي حملها ذاتَ صباحٍ دونَ رغبةٍ أن ينظر في وجهها فتنطبع ملامحها بداخله.

اليومَ سيُعيدُ ملابسي وحاجياتي لأمي التي لن تتحمل وفاةَ كبيرتها بهذه البساطة، وستتذكر سلاطة لساني و حناني عليها وعلى صغارها.

ينصحه رفاقُه أن يترك الشقةَ؛ فهي تحمل رائحتي ولن يرتاح وتدعمه شبيهتي، أيام لا أكثر وتعود الحوائط إلى فراغها، بعد أن تنـزع صورتي ولن يذكر لي الرفاقُ محبتي، ولن يذكر هو أيَّ شيء.

مساحاتُ الوحدة ستتسع بعد تناثر أعضائي السهل جدًّا.

أحدُهم وهو يضع رفات أخرى حملَ بعضَ أجزائي ونقلها لمكان آخر، أما روحي فتعود إلى النفق لا يراها السائقون، يمرون بأقصى سرعاتهم، ولا يعنيهم المارةُ، الأمور تمضي وكأنَّ حياتي مجرد جملة اعتراضية.

اليوم الذكرى الأولى لوفاتي، أحاولُ أن أستعيدَ روحي، لكن لا جسد تعود إليه الروحُ، وأيضًا لا روح.

مياهٌ في البَحيرةِ

يقول الجد.. قديمًا كانت البحيرة باتساع كل مصر، لكنها أخذت في الانكماش مع قدوم البدو، فكلما قدِمَ أحدُهم إلى المحروسة أخذ من طمي النيل وردم جزءًا منها حتى صارت صغيرة.

لكن الجد الذي تذكر الوثائق أنه -أيضًا- قديم لم يعرف أنَّ البحيرة صارت أصغر من حكاياته.

صوت ارتطام قطرات بالماء بالحوض «الاستانلس» قوي جدًّا يفقده القدرة على التركيز، عندما يقرأ ويتسرب إلى أحلامه دونَ رغبة منه.

نفذ صبره مع هذه الحنفية، لم يعرف أيُّ سباك مصدرَ العيب فيها ولم تفلح كل المحاولات لإصلاحها، كذلك باءت كلُ فكرة تعيد الخلاط بالفشل.

- تخيل أنك تستمع إلى «صولا كمان».. ماهو إحساسك.
- سأكون مُستمتعًا.
- إذن تعامل معها على أنها «صولا حنفية».

بالفكرة كثير من الغباء أو الجنون لكن ربما تكون فكرة مقبولة، أو تكون مجرد حيلة نفسية ليتخلص من هذا الصَّخَب الذي يلاحقه كلما فكَّر في الهروب من نفسه.

- ثمة اقتراح آخر من إحدى زميلات العمل:
- «حُط حلة أو كوبايه».

نالَ هذا الاقتراحُ بعضَ القبول منه، الصولو تضخَّم بعضَ الشيء وكأنه يستمع لصولو إيقاعيٍّ، على كل الأحوال كان يبدو هذه المرة مقبولاً عن صوت ارتطامها بالحوض.

فقط ظهرت لديه مشكلةٌ أخرى، وهي كل هذه المياه المتجمعة في الحلة أو الكوب، كان رميها في الحوض يستهلك وقتًا طويلاً لينفذ إلى البالوعة، وهذا بالطبع يعطل كلَّ نشاطاته.

وأحيانًا كان ينسى أن يسكبها قبلَ رحيله.

لم تكن لديه ذاكرةٌ تكفي كل هذه الأفعال.

- ما رأيك في الكونترباص؟
- هذه الآلة التي تُشبه الكمان ولكن واقفة وكبيرة!
- ربما.. هي فقط أكبر من التشيلو.
- علاقتي بالموسيقا بدأت من صولو الحنفية (يضحك).

في الغالب تهتم الدراساتُ التاريخية بالمكان أو بالإنسان أو بأيِّ شيء لكنه كان بصدد البحث عن شيء يمكن أن نصفه بكلمة تاريخ البِرَك؟

فكرة غريبة.. ربما، لكن من أين تكونت البِرَك؟ وهل بدأت بِرَكًا أم كانت بحارًا أو أنهارًا أو بحيرات أو أيَّ شيء؟

كيف وصلت المياه لهذا الجزء من اليابسة ولماذا يكرهها الناس؟

رائحة كريهة.. مصدر لتجمع الناموس والذباب، منظر جميل.

إذا كانت مياهُ البِرَكِ هذه تعيش بها الفطريات والكائنات وحيدة الخلية (أصل الحياة) فهذا يعني أن لها قيمة، فلماذا يكرهها الناس بهذا الشكل؟

المياه لا تتجدد بصورة كافية أو لا تتجدد أصلاً...

يُلقي الناسُ بها مخلفاتهم.

إذا الناس هم السبب وراء رائحتها الكريهة وتجمع الناموس والحشرات.

أعاد تصوراتها عن الأشياء، كان كلَّ يوم يمرُّ بهذه البِركة؛ يُفَكِّرُ من أين أتت!

أخذ أجازة من عمله وتفرغ ليجمع حكايات عن هذه البِركة...

الرجال الذين يلعبون السيجة كلَّ صباح بالقرب من البِركة مصدرٌ غَنِيٌّ للحكايات خاصةً أن سماتهم تبدو قديمة.

كلٌّ منهم له حكاية مع البِركة.. رغم إن أحدهم يقول إنه لا أحد منهم كان يسكن في هذا المكان عندما كانت هذه البِركة بُحيرةً كبيرةً لها فرعٌ يقابل النيلَ في أيِّ مكان.

كان مُغرمًا بِجمع الحكايات أيا كانت مصداقيتها.

صوتٌ يشبه «صولو الحنفية» ذكَّره أنه لم يعد ينتبه لهذا «الصولو»، انصرف مُسرعًا، وعادَ مرةً أخرى لتتبع حكايات البُحيرة.

- «كنتُ أسبحُ هنا و أنا صغير ولم أكن أخشى السمكَ الموجودَ»

يتعجب وهو يسمع.. أسماك، سباحة، ما كل هذا! لم تعد الكتابة تسعفه لتدفق سيل الحكايا؛ اشترى مُسَجِّلاً كهؤلاء الصحفيين.

ذاتَ يومٍ كنت أصطاد أنا وصاحبي، فعلقت سنارتُنا بشيء كبير كاد يجذبنا إلى الترعة.. ربما كانت عروس البحر.

- ومن أين تأتي عروس البحر؟ أليست هذه البحيرة علاقتها بالنيل؟

- «يا أستاذ ما هو النيل برضه بيرمي في البحر وممكن عروسة البحر تروح في أي حتة»

- «لكن المهم عملتوا إيه؟»

- لم نذهب إلى الصيد مرةً أخرى.

- لابد أن هذه الحكاية لها دور في هجر الصيد والسباحة في البُحيرة.

- كيف انقطعت صلةُ البحيرة بالنيل؟

لم تأتِ أيٌّ حكاية لتجيب على سؤاله هذا.

لكنه بعد أسبوعين من العمل، انتهت إجازته وأصبح لديه عشرات من الشرائط المُسجَّلة الممتلئة بالحكايات وعشرات الأوراق من الفترة التي كان يُدَوِّنُ بها.

أصبح «صولو الحنفية» غير منتظم يتبدل من صوت إيقاعيٍّ حتى صوت وَتَرِيٍّ، كل ساعتين يقوم بإفرغ المياه المتجمعة في الحلة وفي الصباح لم يكن يجد الحلة ممتلئةً كما سبق.

لماذا انصرف انتباه الحي من هذه البِركة؟ ولماذا سمحوا بكل هذه الزبالة بجانبها.. لابد أنه لا يوجد أشخاص مُهِمُّون في هذه المنطقة، لكن كيف تعيش الفطريات والكائنات الموجودة في البُحيرة/ البِركة؟ لابد أنها بعد فترة ستموت هي أيضًا.

ماذا يفعل؟ يسمع عن أن الناس تمشي وهي تفكر.. تتحرك، تشبك أصابعها، تلعب في شعر رأسها.

عليه أن يختار سلوكًا كهذا.

أخذ يتحرك يمشي جيئةً وذهابًا.

أخرجه صوت «صولو الحنفية» مع توزيع جديد فالحلة قد امتلأت وأصبحت الحنفية تلقي بقطراتها في الحلة فتقوم الأخيرة بإلقاء الفائض في الحوض.

قد يبدو الصوت مزعجًا، لكن ها هي الموسيقى الحياتية..
يمكنك أن تجد موسيقى في كلِّ شيء حتى في الضوضاء من حولك.

ما هذه الأفكار الكلاسيكية؟ على كلِّ الأحوال هي أفكار تعبر رأسَه فلا يمكنه تجاهلها حتى لو بدت سخيفةً.
تنهدَ ودخلَ إلى السرير.

صباحًا ذهب إلى محل أدوات صحية.
.. تُرى الأنسب أن يشتري الإنسان خرطومًا أم ماسورةً، الماسورة صلبة وقد تتسبب هذه الصلابة في بعض المشكلات وربما في المرور.. من الآخر الماسورة كلها مشاكل وفى النهاية ستؤدي إلى كسرها.

الخرطومُ مناسبٌ جدًّا.
اشترى أكثر من خمسين متر مقاس بوصة.
ثبته في الحنفية ومدَّه من شرفته حتى البِركة وترك النهاية الأخرى في البِركة/ البُحيرة.

كانت بُحيرةً عندما كانت متصلةً بالنيل، وها هي الآن.
أليست الحنفيةُ تتلقى مياهها من النيل؟!

في المساء اكتشف أنه افتقد «صولو الحنفية»، صدمه الفقدُ لكنه توجه إلى حنفية الحمام ولم يحكم غلقها.

مبررات لغلق العينين

تصبحين على خير أيتها العيون المفتوحة باتساع عليّ،
الآن سوف أنام وأتركك تراقبين الغطاء المنحصر من على جسدي،
ولن أسمح لأحلامي أن تغادر شقتيّ.

سأحلم هذه الليلة بصديق قديم يضع الكثير من الطعام ويدعوني لتناوله، ولكنني لن أفعل -نذير سوء- وعندما أحادثه سأجد نبرة حزن في صوته، سوف يتكلف الابتسام مُدَّعيًا أنه لا شيء وسوف أذكره أنني لا أرى ابتسامته.

أم صديقي ستعاتبني لإهمالي المتكرر لها، ورقم هاتفها الذي فقدته، ولن أعبأ كعادتي بالألحان المنبعثة من هاتفي إلا عندما أتذكر في حلمي أنها نغمات المنبه لكي أستيقظ.

كل العيون مفتوحة ولا تسمح لبعضها بالرمش أو بغض بعضها، متعلقين بملابسي، لن أختار بنطالاً ضيقًا أو تنورةً قصيرةً أو فستانًا يظهر معالِمَ جسدي، لكننى سوف أبحث عن تفسير للحلم الذي رأيته، ولا أعبأ باتساعها أو مراقبتها لي، القطة لون عينيها يتغير إلى الأحمر وهي تداعبني، ولا أعرف كيف آمنها مع كل هذا الاتساع.

العيون الشرهة تلتقط أجزائي ككاميرا فوتوغرافية.. بعناية فائقة واضعة كل جزء أسفل ميكروسكوب، مقارنةً إياه بمعايير الجودة فلا أصلح سوى لملاحقة الرجال العجائز، تتطاير خصلات من شعري فلا يهتز أحد ولا ترمش هذه العيون.

أغمض عينيَّ، أتخيله قادمًا يحمل كلَّ أحلامي ويحقق لي أمنياتي في أكل البطيخ، لكنه لا يحب شراء أيِّ شيء، ولا يذكرني ببطيخة أتبين بها حُسنَ طالعي، فأهدِّئ نفسي، وأتخيله في حوار آخر يحمل لي أمنيةً أخرى، لكنه يفتح عينيه عن آخرهما ويرقب حركاتي و وزني المتزايد، ويعنفني: لا أحبك.

ممتلئة، أختبئ في ركن صغير أبحث عن قطتي وأملأ عينيَّ بها.

من خلف النافذة ألمح نظراتهم على النوافذ، وبعضها على الستائر، يسمعون صوت شجاره، ويرون دموعي حين ألتمسه أن يخفض صوته.

تصبحين على خير أيتها العيون المفتوحة باتساع على أحلامي، لن أسمح لك بمراقبتي هذه الليلة، وأنا أحادث الولد السريَّ على الهاتف، سوف أتيح له استعارات عديدة، وأريه -عبرَ الأسلاك- لون شعري، ونعومة جدائلي، سأظل أهمس إلى وقت قريب جدًّا من الصباح، وحين أنام لن أحلم هذه الليلة، سأحمل في أذني طنين صوته، و أتذكر كل الرفاق السابقين وهم يتناقشون معي بجدية شديدة ويحملونني مسئولية عيونكم المفتوحة على أردافي، وتساؤلاتكم عن سمرتي وعيوني الزُّرق، لن أطيل حديثهم وأنهيه بغمضة من عيني، وأراقبكم جميعًا وأنتم هناك تصطفون أمام المنازل في انتظار سماع خطواتي كإشارة انتباه لكم جميعًا، ولن تغفر زوجاتكم لكم ملاحقتي.

اتساع عيونكم لن يضيرني هذا المساء، وأنا أعود متأبطة ذراعه و أمسح على شفاهي بابتسامة باتساع عيونكم.

ستتناقلني النظرات ولن أهتم بها، سوف أصعد على السلم مُحدِثةً جلبةً عظيمةً وأُسمع كلَّ عيونكم تأوهاتي في الفراش حتى تتركونني هذه الليلة أحلم به.

سيأتيني جنينٌ في رحمي يدغدغ في جسدي اللذة،

وسيهرب من لحظات إنجابه طويلاً قبل أن يصرخ وتسعد كلُّ السيدات اللواتي انتظرنه.

سأضعه في الفراش و أهتم بطعامه وملبسه وأحيك له بنطالاً كما يريد، وحين يخرج مع فتاته سوف أودعه بقبلة ونظرة واسعة.

هذه الليلة لا أحتاج إلى تلصصاتكن عليَّ وعلى بطني المنتفخ باستمرار وكأنني لا ألِدُ أبدًا.

اليومَ سأمسك الإبرة وأخيط عيونكن وأصلب نظراتكن على أفاريز البيوت، سأقطفُ نظراتكن من على جسدي ونوافذي و أترككن مغمضين الأعين، كل يوم أمرُّ عليكن أبللكم بلعابي وأهرب قبل أن تتشابك أيديكن في البحث عنِّي.

لن أسمح لكم بمراقبتي وسأترك غلماني يضايقونكن بنبالهم وحصاهم.

عيونكن مغلقة الآن وعيناي تلتهم عيون أزواجكن التي تركتها على اتساعها لأعذبهم بأحلامي الجرثومية، سأدعها تتكاثر وحين يصطدم حلم بأحدهم سوف أقص عليه حكايةً أخيرةً من حكاياكُنَّ في النوافذ و أمام مسلسل الساعة السابعة.

الليلة سأنام جيدًا ولن أحلم.

مساحة كبيرة من الهامش

بلغت المساحة الفاصلة بين كلينا حَدًّا لم تبلغه من قبل؛ إذ ازدادت طولاً وعرضًا وعُمقًا، وكان هذا مبعث خيبة أملي.

كانت نظراته في اتجاه لا علاقة له بوجودي، وكذلك نبرات صوته؛ فهو يحمل بداخله من أجلي العديد من الانكسارات التي سهلت عليه كثيرًا أن يلقي بي في هذه المساحة الفارغة.

وكنت أجيد فنَّ الحكي فأجلس قبالته وأجذبه من أذنه وأحكي حكايات وهمية، وكثيرٌ منها صادقٌ عن أشباح تزور

المنـزل ليلاً وتترك خوفًا على المقاعد وفي الأماكن المظلمة، وهو يضحك ويبدو صامتًا وخجولاً.

منذ سنوات خاصمني لأنني كتبت عنه، وكان يرى نفسه هامشيًّا مثله مثل أجيال كثيرة موجودة، ولا فارق كبير، فلماذا أعنون القصة بأخي؟ ولماذا أختزل كل انكسارات الجيل فيه، ربما لأنه هو أقرب لي من كل الجيل إلا أن ذلك ليس مبررًا، إننا كثيرًا ما نمتلك مبررات لنتسلق من يحبوننا ونُراهِنُ على مساحاتنا الأثيرة بأعماقهم.

منذ عدة أيام تأخر عن المنـزل، بل إنه لم ينم في فراشه، وكانت أمي قلقةً جدًّا، لكنها من تلك السيدات اللواتي يُعطينَ لكلِّ انفعالاتهنَّ سلوكًا وحيدًا و واحدًا هو النوم!

نامت أمي كعادتها في كلِّ شيء، وأرسلت لي رسائلها المشفرة في كابوس لأخي يقود عربته ويسير في الاتجاه المعاكس، بينما نصرخ جميعًا لاحتـمالات اصطـدامه بسيـارة أخرى، هلعتُ كثيـرًا واستيقظـتُ، شربتُ قليـلاً من الماء متمتمةً «خيرًا اللهم اجعله خيرًا» داعيةً الله أن يصونه ويحفظه من شر الطريق وهدأ هلعي، وانقضى الأمر، لا أعرف مبررًا لعدم اتصالي به، ربما انشغالي بأمور عديدة كأهمية تواجدي إعلامِـيًّا وثقافِـيًّا، ثم أهمية اختبائي خوفًا من الانزلاق في هُوَّات لا أجيد التعامل معها أيديولوجيًا، لكن الأمور تنقضي.

ظلت أمي لفترة -ليست قصيرةً- بعدها ترسل لي إشاراتها الكابوسية وأنا كعادتي الموروثة أستقبلها نائمةً: و أتمتـم «خيرًا اللهم اجعله خيرًا».

الـنَّصُّ واضحٌ وصريحٌ، وعباراته المليئة بالعتاب ليس لها أيُّ مدلول غير عدم فهمه. لماذا ترحل فتاة عن بيتها؟ كان لا يجد مبررًا لعدم وجودي في الفراش كلَّ ليلة، رغم إنه يعرف فراشي الجديد، رفض أن يدخل شقتي ووجدها أقصى مكان يعرفه، و اعتبرها انكسارًا جديدًا يضيفه الزمن له، غلبه الشيبُ وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وبات صامتًا وحيدًا، يعمل أيَّ شيء ليستطيع أن يترك مساهماته في المعيشة لأمي التي دأبت على اعتباره أبًا بديلاً بعد رحيل الزوج المفاجىء، كانت تفتش جيوبه -وهي التي لم تفعلها مع أبي- تحرص على ألا تترك معه أيَّ نقود، تجد طرقًا عديدةً تنفق فيها كلَّ ما يحصل عليه، وهو لا يبالي سوى أن يمنحها ما تطلب، يجد في فقدها لزوجها مصيبةً أكبر من أن تلهيها عن اتفاقها المحموم لتزويج فتياتها. ظلَّ صامتًا منذ ما يقرب من العام، وحين ألقاه أجده في فراشه، يجلس معي بضع دقائق وقد استطعت أن أحتلَّ منـزلة الضيف، فصارت غرفـي مكانًا يليق بحفظ الأجهزة المعمرة للصغيرات المُقدمات على حياة جديدة.

غارت عيناه وكادتا تحفران ثقوبًا ضيقةً في عظام جمجمته واستطاعت السجائر أن تحدد مكانهما بدقة عبر هالات

سوداء وتمكن من الحصول على مكانة متقدمة من الإيثار حين بلغ عامه الثاني على التوالي دون أن يشتري لنفسه حذاءًا أو قميصًا أو بنطالاً، وما حصل عليه منها كان قهرًا، نظرًا لإحساس الأم بأن ابنها بات لا يمتلك شيئًا يرتديه على أيٍّ من أجزاء جسمه.

كان رحيل الأب وراء كل تأجيلات أحلامه ومشاعره المكبوتة تجاه أيِّ فتاة يمكن أن تصلح زوجةً له، حيث رأى دومًا في نفسه الزوج البديل و رب الأسرة، ترك خيالاته وأغلق دولاب هداياه بقفل صدأ من كثرة الإهمال.

لفترة كان يتشاجر معي كلما أتاني صوته عبر الهاتف متسائلاً عن أسباب خلو فراشي في منـزل العائلة كل هذه الفترة، وأنا أحاول دومًا أن أمنحه إجابات لا يقتنع بها لأنها لم تكن صحيحة، وعندما ييأس يغضب منِّي، لكن الغضب كان يزول لأسباب منها طول البعد بعد هذا الشجار وثانيها أنه لم يكن يلتقي بي إلا لدقائق، تلك التي تستغرقها واوات العطف بين أفعاله.

في المرة الأخيرة جاء صوته حياديًّا، لم يتشاجر ولم يسأل ولم يعلق وبات مُنشغلاً لإخلاء الهاتف حتى يستقبل مكالمة رآها مهمة له، منح أمي السماعة، لم يقل لها من المتحدث، تركها وأشار لها بيده لتنهي المكالمة سريعًا، واستعد لحلاقة ذقنه حتى يسمع رنين الهاتف يطلبه.

صالة المزادات

٧ ش حسن صبري بالزمالك.. عنوان صالة المزادات التي سيتردد عليها في الفترة القادمة حيث قرر أن يغير من شكل تعامله مع الدنيا.

أول هذه التغييرات وضع بعض من قطع الأثاث المختلفة في ردهات شقته وسيفتعل حكايات وهمية عن أصدقاء أهدوه إياها معتمدًا على شيخوخة هذه القطع.

أحد الأصدقاء كان يضع في إحدى غرفه صورةً لامرأة في بداية العشرينات، والعشرينات هُنا ليس فقط عمر المرأة، ولكنها إشارة إلى الزمن الذي الـتقِطَت به الصورة، فالمرأة تشبه نساء الأفلام الصامتة.

عندما سُئِلَ هذا الصديقُ عن هذه الصورة قال إنها لأمه، وبعدَ قليل من الصمت اعترف أنه وجدها وسطَ أكوام القمامة.

لكنه لا يعرف هذه الحكاية، فقد حدثت مع شخص ثالث غيرهما، وعلى الرغم من تداخل الدوائر بهذا الشكل الكبير، فاحتمال المصادفة أن يعرف أحد الاثنين الآخرين حكاية قطع الأثاث هو احتمال ضعيف؛ لأنه اختار صالة مزادات لا يتردد عليها أيٌّ من معارفه أو أصدقائه.

كانت الصالة ممتلئةً بأشياء عديدة، كان عليه فقط أن يحدد احتياجاته ونوعها لينتقل إلى الخطوة التالية.

المقعد:

لديه مقاعد كثيرة في شقته، إرث من فترة العزوبية حيث كان يقيم حفلات خاصة، توقف هذا الطقس بعد الزواج وبقيت المقاعد الكثيرة تزحم الشقة (هكذا قالت زوجته) إذن سيثير المقعد الجديد حنق زوجته ولا يبدد هذا الحنق أي شيء حتى لو علمت أنه مجرد هدية، سيكون عليه حتى يحتفظ به أن يتخلص من أحد المقاعد الموجودة، إذن المقعد مُستبعَد من حساباته على الأقل مؤقتًا.

البارافان:

هو لا يحب فكرة البارافان حتى الموضوع أمام الحمام، ولا يرحب بأيِّ شيء يضع حدودًا لعينيه.

السجاد:

هذا الاهتمام نسائيٌّ إلى حد بعيد، فلماذا يعتني هو بالسجاد أو بشرائه؟ وما قيمة أن يشتري سجادةً متميزةً، يدوس الناس تميزها بأقدامهم.

الفازات:

تحكي كلُّ التجارب عن أن الصغار يهوون تكسير الفازات، فلماذا يشتري شيئًا لن يستمتع حتى بمجرد النظر إليه وسيكون عليه بعد الشراء بفترة أن يقوم بتخزينها؛ حتى لا يكسرها الصغير الذي يلهو بكلِّ شيء في حياته.

دولاب الفضيات:

تحب زوجته الفضة، وتقتني الكثير منها، ربما يكون هذا هديةً مناسبةً لها إذا ما حدثت بينهما مشادة وتعاظم إرضاؤها.. سوف يضعه في نوتة الهدايا، لكنه هو و بشكل شخصيٍّ لا يفضله. تتكرر الزيارات لصالة المزادات، و يفكر كثيرًا لكنه حين سأل عن إمكانية استخدام بطاقات الائتمان في التسديد، كان يمسك صورة امرأة في العشرينات من عمرها ومستوحاة من بدايات القرن الماضي.

الفارق الوحيد بينها وبين صورة صديقه التي عثر عليها والتي ربما يكون قد سأله عن مصدرها كما فعل آخرون وربما لم يعرف أنه وجدها.

الفارق الوحيد أنها صورة مرسومة وكبيرة، كان يجد بينها وبين أمه تشابهًا ما.

نظر إليها طويلاً قبل أن يغلفها صاحب الصالة بنفسه ويعدها لإرسالها بعد أن علم أنه لا توجد لديه سيارة، الأمر الوحيد الذي لم يتذكره أنه أعطاهم في الصالة عنوان صديقه.

Sex Bride

عناق محموم ألهاهه عن تصفيف شعرها، تصبب عرقه على جسدها، اتخذت حبات العرق مجاري مختلفة وانزلقت من على الجسد الأملس، ابتل الشعر ولم تعد تجدي معه لمسات رقيقة لتسويته وإعادة رؤيته، العناق الشديد يسمح بضغطات قوية يمكن أن تؤثر على مادة المطاط على المدى الطويل لكنه الآن كلما رفع يده عن جزء عاد كما هو ببطء وبرودة.

عَلا صوت أنفاسه وتسارعها، وتسارعت حركته بما يوازي الضغط العصبيّ والمجهود الذي يبذله، وبعد حركات متسارعة هدأ وتنفس ببطء، ودفعها بعيدًا حتى نهاية ذراعه.

احتسى كوبًا من العصير وجفف عرقه، ونظر إليها: ما رأيك أكنت قويًّا!

لم ترد ذات الملامح المطاطية، ابتسم وعلق: بالطبع كنت كذلك.

تأهب للخروج يحمل حقيبته، وبعض أفكار جديدة لتطوير عمله، دخل مكتبه فوجد زميلةً جديدةً، ثمة شيء مختلف بها، راقبَها لفترات طويلة، ولا يعرف وجه الاختلاف، اشترك في أحاديث جانبية عديدة حولها، ثم حسم الأمر وخطفها في سيارته البيضاء الفارهة.

يقول الزملاء إنه فاز بها، واستطاع كعادته إحراز كل انتصار لصالحه، ولفترات شهد المكتب كلمات من الود وأحاديث خافتة، كان الأثاث يتناقلها فيما بينه، ولا يسمح بخروجها خارج حيز المكان.

ذات يوم سأله زميله عن سر اختلافها عن الأخريات، لكنه لم يعبأ بالسؤال فأيًّا كان اختلافها فهي ملكه الآن.

فكر للحظات لماذا هي مختلفة! لكنه لم يتوقف ليحصل على الإجابة، رنَّ الهاتفُ وكان عليه الإجابة والمشاركة بعد ذلك في العديد من الأحاديث المختلفة النوع والموضوع، واكتفى بحفظ السر بداخله لكونها مختلفة.

عناق محموم، لم يمهلها لتسوي خصلات شعرها، تصبب عرقهما، واختلط آخذًا مجاري مختلفة وعديدة على الجسدين،

انزلقت حبات العرق من على جسدها الأملس، ابتلَّ شعرُها تمامًا، ضغطات قوية تشعر معها بأن ضلوعها ستنكسر، فقط يمنعها من الكسر أنه من حين لآخر يرفع يده عن كل جزء ويتركه، كان عرقه أكثر من أيِّ مرة، وحرارة كبيرة يشعر بها، لكنه كان منشغلاً الآن عن أيِّ تفكير في سر ارتفاع درجة الحرارة.

أنفاسه المتسارعة لا أحد يوقفها، وضغطات يده وحركة شفاهه، كلُّ شيء به كانت سرعته كبيرةً جدًّا ومتلاحقة حركاته، للحظات يظن معها من يراقبه أن أنفاسه عندما تتوقف سوف يكون قد مات لكنه عندما توقفت أنفاسه لم يكن شيء ذو بال أصابه، تنفس الصعداء بهدوء فرد ذراعيه فكانت ترقد عند أطراف ذراعه، نظر إليها وابتسم

- كنت قويا؟

قالت له بعد صمت

- طبعًا!

ابتسم واحتسى كوبًا من العصير وقام من فراشه.

تكورت على نفسها، وبحثت عن منشفه تجفف أنهار العرق وتهدأ من حرارة الجسد، لكنها تنخفض درجة حرارته بسهولة.

كان الاستحمام بالماء البارد أحد وسائل لخفض درجة الحرارة، تلاه مراقبة الصغار في أثناء نومهم.

مساحات ليست بسيطة تحوطها في الفراش، حاولت النوم وفي الصباح كان عليها أن تصحو مبكرًا لعدد من التفاصيل المنـزلية غير المهم سردها.

في المكتب كان ثمة احتفال بعودة الزميل الغائب، في لحظات كان قد عرف كلَّ الأخبار التي خَبَت عنه في سفره.

انتحى به جانبًا، وجذبه من ذراعه ناعتًا إياه باللص ضحكا فسأل الزميل: والآن بعد كل هذا الوقت هل عرفت الاختلاف؟

ضحك كثيرًا ناعتًا إياه بالغباء وقائلاً إنها لم تكن لي.

السماء الزجاجية

يضعون لنا زجاجًا في السقف وكأنهم يضعون قبــةً زجاجيةً ليعلموننا أن العالم أرحب إذا ما نظرنا إلى أعلى، وكانت الجدران والأرضيات من الخرسانة التي سبق إعدامها في مشهد دراميٍّ أمام الجميع، كنت أخطو على جثث تتنفس ببطء فلا أسمع وقعَ أقدامي، كانت الأجساد تمتصها، فكرتُ أن هذه الطريقة في التعامل مع الأشياء ستحوِّل حياتي إلى جحيم لكنني لم أكن أعرف ماذا أفعل، هل أرفض العمل لخيالاتي المريضة، لم يكن الأمر منطقيًّا، لكن الكوابيس ظلت تلاحقني، أرفعُ عينيَّ فأجد

سماءًا رحبةً بلون البحر، تعتريها سحبٌ بألوان داكنة مختلفة ما تلبث أن تصير كلها بلون أحمر قانٍ، وتصحو كل حبة رمل في الخرسانة لتتحول إلى شوكة تنغرس في قدمي، أما يداي فتمتدان لتلتصقا بالجدران ثم تنفجر دمائي من كل جزء فيَّ وتشاركها الجدران فتسيل دماؤها والأرضيات.

وشيء فشيء يصير كل شيء بلون أحمر ثم أغرق.

ذات يوم كدتُ أختنق لولا أن أبي أيقظني في الوقت المناسب، وكان لا يمر بحجرتي كثيرًا؛ فهو ينام مبكرًا عني أحيانًا، ولقد غادرت منــزل الأسرة منذ وفاته وظللتُ أسكن مدينة أخرى للحصول على فرصة عمل تناسب ما حصلت عليه من خبرة.

في هذا اليوم أيقظني وربتَ على كتفي وأخذني إلى مكان لا أعرفه، جمعَ لي عددًا من الزهور، قال إنها بلا مناسبة سوى أنني أحبها، فرحتُ بها، جمع لي بعض ثمار الفاكهة وأعطاها لي وقال كُلي حتى أعود إليكِ.

أمسكت بالفاكهة ووضعتها في حجري وجلست على الأرض وبجواري الزهور، ثم شعرت بوخزة في فخذي ثم ألم وتزايدت حتى صارت آلامًا كثيرةً، بحثتُ عن مصدر الألم كانت أوراق الزهور قد صارت أشواكًا والفاكهة نبتت لها أسنانٌ ظلت تقضم يدي وكل ما يصلها من جثماني حتى انفجرت دمائي، حاولت الوقوف لأبحث عن والدي، كانت الأرض تشدني إليها بعنف وتتحدب أسفل حتى ابتلعتني وكانت أنفي هي آخر ما

غطته الأرض، وبتُّ لا أستطيع التنفس، ودمائي تسيل، أشعر بدوار وانخفاض في الضغط، ولا شيء يساعدني على التنفس، كدتُ أختنق فأيقظني -عنوة- صوتُ المنبه لأقوم لموعد عملي.

استيقظت لاهثةً، والعرق يبلل جسدي وعلى الوسادة رأسي مطبوع بلون أحمر، لم أحاول الانشغال بهذه التفاصيل، شربتُ بعضَ الماء واستعذتُ بالله ثم ارتديتُ ملابسي وتزينت حيث اليوم الأول للعمل.

وصلتُ إلى الجامعة، وأوضحتُ لطاقم الأمن هويتي فدخلت إلى مبنى جدرانه وأرضياته خرسانية وكل أبوابه سوداء وضعوني أمام عدسة والتقطوا لي صورةً وضعوها على بطاقة أخبروني ألا أستعمل غيرها.

اجتزتُ ممراتٍ عديدةً ضيقةً، لا أسمع خلالها سوى أنات الهواء المنبعث من التكييف، دخلت قبوًا ضيقًا لونه أسود صعد بي إلى الطابق الرابع.

كانت يدي تنـزف، ولا أذكر أنني جرحت من شيء فوضعت قطعةً من المناديل الورقية فوقها حتى تجف.

مساحات كبيرة من السقف مصنوعة من الزجاج، أجلس في موضعي فأرى السماء لكنها بلون مُحايد أتذكر المقاطعة وحكايات عن المقاومة في بلدان عديدة، ولا أعرف لونًا للسماء، مسخها الزجاج بلون كالح لا يمكن وصفه يصنع حالةً شعوريةً مُحايدةً.

كانت تصل إلى أذني همهماتٌ باللغة الإنجليزية، وكان طبيعيًّا؛ لا يتحدث أحدٌ هنا سواها، لم أبالِ، فلم أكن أتحدث مع أحد إلا فيما ندر.

أجلس إلى منضدة أو يسمونها لوكار Locker تمتد أمامي أكثر من نصف متر ثم تنتهي بحاجز خشبيٍّ يرتفع لمتر، يعزلني عمن حولي، أنظر إلى السماء فلا أعرف حالة الطقس، ويتواطأ التكييفُ المركزيُّ لتعميق هذه الفكرة بداخلي، وأنا في الطريق كان الجو شديد البرودة لكنه الآن دافئ قد يصل إلى حد الحرارة؛ فأخلع الجاكت وأجلس متخففةً من ملابسي، السماء لا تخبرني بشيء ولا حالة الطقس تفيد إلا عندما أخرج من هنا.

أحاديث عديدة تلتقطها أذني، دول عربية وشباب يَتلون، لكنني لا ألتفت إلا كلَّ فترة لأعدل من وضع رقبتي وظهري حتى لا يتقوس بفعل الجلوس.

القبو مصمت جدًّا، سواده يملؤني كآبةً لكن السلالم مرهقة جدًّا، وأنا أجلس في الطابق الرابع، يعجبني كثيرًا الحمام، أجده مُريحًا لا سماء باهتة فيه، هناك مرآة كمعادل لشفافية الزجاج بالطبع أراني فيها وهذا أفضل، أجلس وقدماي ملتصقتان بالأرض وشعري مثبت في اللوكار أمامي وأصابعي ممسكة بقلم لفترات طويلة.

كنت أحتاج للذهاب إلى الحمام فحاولت أن أبتعد عن اللوكار و أرتدي حذائي لأنني دومًا أخلعه وأنا جالسة، لم أستطع

الابتعاد أشعر أن صدري يتم بتره فيملؤني الألم، أحاول التعامل مع الأمر بهدوء، أرفع قدمي فلا أستطيع، ثقلت قدمي، نظرتُ إلى أسفل وجدتُ حجمها زاد نصف الحجم، مغروسة في الخرسانة اللعينة لم أفهم ما يحدث.

حاولت أن أحرك رقبتي فوجدتُ شعري مُثبتًا في المقعد خلفي، وكانت مؤخرتي ملتصقةً بالمقعد.

تزايدت رغبتي في الذهاب إلى الحمام مع تزايد الألم في جثماني، لم أستسلم لذلك نفضت نفسي من كل شيء فبُتر صدري وانفجرت شراييني الممسكة بالصدر وتساقط شعري على المقعد، أما مؤخرتي فبالطبع نال منها المقعد جزءًا ليس بقليل.

حاولت أن أسير أنظر إلى أعلى، فلا أجد شيئًا قد تغير، سماء بلون كالح وكلما وضعت قدمي على الأرض كانت تنبت لها جذور في سرعة، فكان عليَّ أن أسابق ذلك وأعدو لاهثةً تجاه الحمام الذي بعد كثيرًا.

اكتسى جسدي بلون أحمر، وكان المشاهدون يعرفون بمروري من لون الأرض الذي يتحول إلى الأحمر تدريجيًّا، أخيرًا قد وصلت إلى الحمام وكل آلامي تنمو، وكانت المرآة قد تحولت إلى مجرد زجاج يكشف سطح البيوت المحيطة، على سطح قريب فتاة تمسك بعنــزة صغيرة، حيتني العنــزةُ، ولم أستطع قضاءَ حاجتي لأن الجدران كلها قد صارت زجاجية.

خرجتُ عائدةً إلى مكاني أمام اللوكار، سقطتُ من الألم ودمائي منتشرة من حولي، هدأ هدير التكييف واختفى كثيرون من حولي، أصبحتُ لا أفكرُ في شيء سوى استعادة أعضائي المبتورة عنوةً لكنني لا أستطيع التحرك، العنـزةُ تُحَيِّيـني ولا ألتفتُ للصغيرة التي تحملها.

حاولتُ الوقوف على قدمي فسقطتُ مغشيًّا عليَّ.

كم رجل تدعوه حبيبـي؟

يصمت الراديو لثواني تعتبرها سلوى رسالةً لكي تتحرك من مقعدها الذي جلست عليه منذ أكثر من ستِ ساعات بلا حراك، تعتدل في جلستها قبل بادرة الوقوف لأول مرة هذا اليوم. ربما يقول عنها من يراها إنها نشيطة، وربما يقول آخرون إنها حمارة شغل، وربما يقول غير هؤلاء وهؤلاء إنها مكتئبة أو حزينة ولذلك تدفن وجهها في الأوراق والملفات التي أمامها.

سلوى نفسها لم تفكر أن توصِّفَ حالتها لهذا اليوم، هذه الحالة التي قلما تنتابها.. دغدغة في الشعيرات الدموية، صمود متجدد لبصيلات الشعر المنـزوع بواسطة المواد الطبيعية، وشيء من عدم الثبات، تكره سلوى هذه الحالة وربما فكرت أن تتحدث مع أيِّ شخص قريب منها كرغبة للبوح بهذه الحالة الشعورية التي تكون لها تجلياتها على جسدها.. في الحقيقة إنها لن تفعل.

المتابع الجيد لحالة سلوى يعرف أنها في هذه الحالة تصبح كالمدمنين الذين لم يتناولوا جرعة المخدر في وقتها، أو الذين تناولوا جرعةً أزيد قليلاً.

حالة ما بين النشوة وعدم الاتزان

وهي الآن تضم ساقيها وهي تسير بخطى ضيقة لتقضي على بقايا النشوة المتسربة خارجها، تشعر أنها تشتاقه.

عندما قبلها في المرة الأخيرة كان عنيفًا جدًّا، اعتصرها بذراعيه،كاد يأكل شفتيها، ابتسم قبل أن يرحل دونَ أن تتأكد من وجوده.

في اليوم التالي فسرت سلوى ذلك لنفسها بأنها كانت تحلم.

وعندما التقت به مرةً ثانيةً، كان حلمًا فعلِـيًّا لكنه لم يفعل سوى تقبيلها

ملاحظة: هذا الذي قبّلها في الحلم لم يكن صاحب القبلة السابق ذكرها.

لاحظت سلوى أن كل زوارها يقفون عند حدود التقبيل، وحاولت إيجاد تفسير مقنع وهي تتفحص تفاصيل جسدها أمام مرآة، توقفت عند بوابة الدخول إليها.

بعيد هو الآن يمكن أن نعتبره مسافرًا، فالسفرُ حالةٌ توفر مبررات مقنعة للاكتفاء بالحلم عندما نشتاق لمن نحبهم.

سلوى مثل كثيرات تقف عند حدود غير مبررة للفعل الحياتيِّ.

له ابتسامة تبدأ من عينيه، هي الأخرى لا تعرف لماذا تبتسم عيناه أولاً قبل شفتيه، ولم تجد إجابةً لسؤالها عندما سألته لماذا لا يعبر عن اشتياقه لها؟

ابتسامة عينيه وشرود في بعض الأوقات صارتا الصورتين الأكثر ثباتًا في وعيها.

كانت تحادث أحدهم وتقول له إنها دومًا تراه في الحلم يقبِّلها فقط وأخذت تسخر منه بأن هذه كل إمكانياته، لكن السؤال الذي لم تسأله لنفسها

«ماذا لو أراد أن يثبت لها إمكانياته هل ستوافق؟»

تقول سلوى: الحرية لا تبدأ من الجسد ولا تمر به، ولا حتى تبدأ من العقل، الحرية أن تتنفسين باتساع وأنتِ في صدر الرجل الذي تريدينه دون تبريرات.

الحرية أن تمتنع عن الطعام وهو متوفر، وأن تغضب لأنك تشعر بذلك وأن تبتسم مثل ابتسامة من أحب.

لكن سلوى التي رأت الحرية في عينيه هو فقط، كانت

حالة الشوق تستبدُّ بها والعمل يغلق حدود أحلامها عند مساحات بيضاء عليها أن تسودها بتفاصيل حياتية.

كان اليوم العاشر منذ سنوات عندما أسند جزعه لباب محل مغلق وأخذ يداعب بأصابعه بعض تفاصيل جسدها دون أن يعبأ أحدهما بكل المنتظرين على محطة الأتوبيس، والحكاية لا تتطور لكنها ظلت متكررة لأيام تالية، و في الركن الثالث من الحجرة إذا تم العد من اليمين ضغط صدرها بجسده وهو يقبلها بعنف، ولم تتطور الحكاية ولم تتكرر كذلك.

وعندما كان اليوم السابع استند إلى شجرة وظل يحكي لها قصصًا عديدةً تغذي عقلها الخاوي من التفاصيل الإنسانية.

تضحك سلوى وتمسك بصديريته وتود لو ترتفع إلى شفتيه، تتنفس سلوى باتساع صدره، وتجري في مساحة واسعة كانت فيما مضى وسط البلد.

المهتمون بسلوى من زملائها الرجال يرون فيها نموذجًا للمرأة المحترمة التي لابد أنها تلهب فراش رجلها خاصةً بتلك المؤخرة المستديرة، والنهود النافرة أما النساء فيرونها ربما فشلت في إقامة علاقة ولذلك فهي تقضي كل هذا الوقت في العمل.
أما مديروها فيرونها متميزةً لأنها الأكثر عملاً بين النساء والرجال.

ثمة فئة أخرى قد لا يهتم أحد بمتابعة رأيهم، هم عمال النظافة، أحدهم كان يلاحظ أن سلوى كل ساعتين تتردد

على الحمام بصفة منتظمة وهي تحمل لفافةً، ظنَّ في البداية أنها فوط صحية من قبيل الاحتياجات الشهرية، لكنه ومع التكرار والانتظام والاستمرارية في هذا السلوك، كاد الفضول يقتله إلى أن خدمه الحظُّ ذات يوم ونست سلوى لفافتها بجانب الحوض، حيث أفزعها رنين هاتفها المحمول، فبدا عليها الارتباكُ، وأشرقت عيناها وهي تخرج مُسرعةً من الحمام هاربةً من صدى الصوت.

أسرع عاملُ النظافة يدخل الحمام ويفتح اللفافة التي اكتشف أن محتواها هو القطعة السفلية من ملابسها الداخلية، وقد كانت معبأةً برائحتين، إحداهما رائحة لعطر رجاليٍّ، والأخرى رائحة نسائية جدًّا، لكن ليست رائحة عطر.

كان فضولُ عامل النظافة يقتله؛ إذا كانت الرائحة النسائية معروف سببها فمن أين تأتي رائحة العطر الرجالي وهي لا تتحرك من مقعدها طيلة اليوم؟

كان الحظُّ حليفَ عامل النظافة إذ إنه في اللحظة التي أعاد فيها اللفافة لشكلها الأول دخلت سلوى إلى الحمام ورمقته بنظرة حادة وأخذت لفافتها وأسرعت خارجةً.

يجلس قبالتها وهو يحتسي عصير البرتقال ويناقشها كيف يستمر في حبها وهو الشبح، تضحك وتخبره أنه لا أحد يتأثر بشبحيته غيرها.

يحتسي البرتقالَ ويتركها مُستأذنًا دونَ قبلة تغذي بها أحلامها.

في زمن ما احتضنها بحنان وقال...

لا، هذا الحضن يحتاج أن نقف معه قليلاً.. لنسأل سلوى أو لنسمعها تسأل نفسها: لماذا أحبته بهذا الشكل؟

تحكي أنه عندما يغادر المدينة تشعر بضيق في النفس، والأكثر أنها تشعر بالبرد، والساخرون يجدون تفسيرًا علميًّا لذلك؛ لأن الجسد عندما يحرق كل الأكسجين فهو يحتاج إلى طاقة فيمتص كل الطاقة الموجودة في الخلايا حتى يستطيع القلب والعقل الاستمرار في الحياة، بينما تبرد باقي الأجزاء.

تقول أحبك هـ.. هــ... وكأنها تكتبها له، تقول أشتاقُكَ فلا يرد على رسالتها.

فتسأل آخر عن وحشتها يخبرها أنها تؤلمه ويرغب في بقائها خارج حياته.

تصدمها صراحته، والأحرى أن صدمتها من تخليه عنها.

الشوقُ المستبدُّ بسلوى هذا الصباح جعلها تتردد على الحمام مرةً كلَّ نصف ساعة، لكنها عندما قررت أن تتحرك كانت معبأةً برائحة امرأة لم تغادر فراش الزوجية لأكثر من أسبوع.

انتصب كلُّ الرجال عند عبورها وتبادلوا دهشةً وابتسامةً حقودةً نحوه.

شعرت سلوى برغبة في السير -وحيدة- في شارع مظلم، وكان الوقت لم يزل نهارًا.

استأذنت من العمل، وخرجت ترمقها أعين عديدة توجهت نحو آخر محل جَلَسَا فيه سويا، طلبت عصير برتقال، وجلست في موضعه، ضمت صدرّها بقوة، شعرت به، تنفست سلوى وابتسمت لعينيه.. وعندما احتست العصير خرجت تتمشى.

لن يأتي أحدٌ

لا أحد أُطِلُّ من عينيه على الشارع وأعرفُ درجات الحرارة لهذا الصباح، كان لابتسامته وجه امرأة عجوز تُطِلُّ من لوحة قديمة في متحف البلدية وهو جالس بعيدًا.

لا أحد أطلَّ من عينيه؛ لأملأ فراغ الوحشة بأفعال وتحركات لآخرين، فقط من أجل أن أنسى أنه لا أحد.

كان يجلس قبالة امرأة أخرى، ويتحدث بكلِّ اهتمام، بينما أراقبه في هدوء وأدرسُ انفعالاته، فهل كان عليَّ أن أحلم أني امرأة أخرى بزيٍّ ملائكة تزوره عند النوم؟

الرجال في المساء يشبهون الملائكة، يمتلكون أجنحةً تجعلهم أحرارًا في الأرض، أرمقهم جميعًا من شرفتي وأجلس صامتةً غارقةً في كآباتي، ومتشحةً بقميص أحمر علَّه هذه الليلة يترك امرأته ويزورني وحدي.

لا أحد لي يا صديقي، فلماذا تعتقد أن الآخرين سيحزنون إن انتحرت؟ بينما هذا الرجل الذي أحبه يوصي برحيلي عن مساحة هو يسكنها؟

صديقي مثل كل الرجال الملائكة، لديه جناحان، لكنه ليس في مرتبة عالية من الملائكة حيث لا يملك أكثر من جناحين فقط، أبتسمُ لأنه في حكاياته المتعددة يتوقف الزمن عنده عند الواحدة بعد منتصف الليل ويجد لي تبريرات عديدة لأنه لم تتم ترقيته وسط الملائكة.

أضحك وأنا أقارن بين صديقي وهذا الرجل الذي يظهر دومًا في فنجاني لكنه ليس لي.

أقارن بينهما فقط في عدد الأجنحة، فهو الأمر الوحيد الذي تفوق فيه، قلت له ذات يوم: لماذا لا تتركني أعد أجنحتك فاستبقاني معه لما بعد الواحدة، وأوصلني بقبلة إلى الفراش، لكنني ضحكت كثيرًا وحلمت بمساحات من الصفحات الخالية من التعقيدات.

لماذا تصر دومًا صديقتي أن نقلب فنجان القهوة وتؤمن بتأويلاتي لتلك الرسوم التي تملأ الفنجان! فقط لأن بعض ظنوني صدقت.

لكنها صارت عادة أكيدة في حياتي فور كل قدح قهوة أحتسيه.

وحيدة في ميدان واسع، لا أحد -مطلقًا- في الميدان وكأنه قد غُسِلَ للتو، كان الفراغ يفزعني كما الزحام بالضبط، في البداية كنت سعيدةً جدًا بكل هذا الفراغ وهذا الهدوء، وبعد قليل أدركت وحدتي، فأُصبت باكتئاب، عدوت نحو النيل، كانت السدة الشتوية الكبيرة، لم أفهم كيف تأتي السدة الشتوية الكبيرة في الصيف، لكن ربما هي الظروف الكثيرة التي تؤكد كآباتي، جلست أمام النيل، وتذكرت كل علاقاتي بالفنِّ التشكيليِّ وأنا لا أعرف أسماء الألوان أو حتى تكويناتها، لكنني أشتري كلَّ هداياي علب ألوان بكل الأنواع، أتعلم فيمن أهديهم فيظنون أن علاقتي بالفن قوية وربما وصفوني بصاحبة الذوق.
كلها أشياء أحاول من خلالها أن أنسى أنه ليس هنا.

كان الميدان خاويًا قلت إنه كان مغسولاً، لكنه بعد قليل نبتت بكل (سم) به إنسان فصار مزدحمًا جدًا وكنت قد عدتُ للتو من وحدتي أمام النيل، لكن شيئًا لم يتغير؛ الزحام يعتصرني، وأكاد أختنق من الرطوبة، محاولات عديدة كي آخذ نفسي لكنها

فاشلة، حبات العرق على جبيني تفسد شعري الذي سرحته بالأمس عند الكوافير استعدادًا لألقاه، لكن كل شيء يبعدني عنه، وهو يجلس قبالة سيدة أخرى وسط الميدان، لكن يديه تمتدان فوق كل البشر، ويحملني من مكاني وقبل أن أصل إليه أصحو على رنين المنبه.

لا أحد معي الآن أو قبل أو حتى بعد الآن، فهل تعني الوحدة أن تكون أنت بعيدًا؟

أسميه مسافرًا أو طائرًا وأحلم بامتلاك أجنحته وأرسم ابتسامته وجه في كلِّ الأعين وأنا أنتظر مكالمته كلَّ يوم خلال ربع ساعة ولا تأتي.

أناقش مع صديقاتي -بجدية- مفهومَ الحب لكنني كنت قد وقفت عند تعريف هو أن الحب يعني أن تغير كلَّ قراراتك عندما تسمع صوت من تحب، كُنَّ أحيانًا لا يتفقنَ معي، لكنني كنت أتأكد من صدق تعريفي عندما يعود كلُّ كياني ينبض بأنفاسه فور محادثة منه.

لاحظت أن امرأته تتغير دومًا عند ظهوره في الفنجان أو في أحلامي، لكن الثابت دومًا أنه منشغل بأخرى.

لا أحد غيره صار يحمل وجه المرأة العجوز الذي أحبه، ولا أحد يأتي ليؤنس وحدتي، في هذه الأيام الحارة، بينما الرجال يرفرفون بأجنحتهم عند شرفتي، وأنا أخشى فتح النافذة

حتى لا يدخل الناموس وأؤثر الوحدة على وجود متلصصين على أحلامي.

أدشن وحدتي ببعض ترتيبات منـزلية أو أغير من وضع كنبة الاستقبال وأنظف المطبخ.

الشَّرَك

هل كان ممكنا أن تمر هذه الساعات دون أن يعرف حالته الراهنة ويكتشف إلى أيِّ حد قد تورط في هذا الشرك؟

ضرب رأسه براحته في غير تصديق لما سمع، وتساءل كيف يتحمل مسئولية آخرين هكذا بكل بساطة دون أن يملك حق الرفض.

امرأته حامل، بعد عدة أشهر سوف يكون مسئولاً فعلِـيًّا عن كائن آخر يسميه الآن الأنكلستوما، لأن شكله كان مُضحكًا عندمـا رآه على الجهـاز المخصص لذلك، داعب زوجتـه وقال لها: هذا الكائن وحيد الخلية يلزمه سنوات ليمكن أن نراه طفلاً.

ضحكت وقالت له:

بل عِد سبعة أشهر من الآن.

شردَ وأمسكَ بسيجارة لفترة طويلة قبل أن يشعلها، لقد نصبت له هذه المرأة شَرَكًا، ولن يقع فيه، لن يتحمل مسئولية أحد.

سأله صديقه ألا تتحمل مسئولية زوجتك؟

قال -كَمُحِبٍّ- : بعضُ القلق ومشاعر كثيرة تربطنا، أما هي فامرأة صالحة لا تشعرني بأيِّ ثقل، أراها أمي في حالات كثيرة لكنها كانت تعاملني بهذه الطريقة لتوقع بي.

ضحك صديقه وضحك أصدقاؤه بعد ذلك.

مازلتُ صغيرًا ولا أستطيع تحملَ أيِّ مسئولية.

بات شاردَ الذهن، جال بخاطره أنه لن ينام ليالي إذا ما استيقظ الصغير، وظلَّ يبكي كما يرى في الأفلام والمسلسلات، كيف سيتعامل معه؟ سوف تغادر زوجته إلى عملها وتترك الصغير في إحدى دور الحضانة، ربما يكون عليه أن يحضره أو يذهب له صباحًا؛ فهي تخرج مبكرةً جدًّا وهل يعرف هل سيكون هذا الموعد مناسبًا.

بدأ يحسب كم سيتكلف شهريًّا من الحفاضات واللبن والحضانة وملابسه -ولا قدر الله طبيبه- كان المجموع أكبر من تصوره، فصرخ محطمًا قبضته على المنضدة، هذا الأنكلستوما سيهدم حياتي؟

ماذا يفعل للهروب من هذا الشرك؟ إنه ليس صغيره، لكنه تردد في ذلك ففي ذلك إهانة واضحة لزوجته واتهام لها وهي مخلصة له جدًّا ويثق بها، إذن عليه أن يبحث عن شيء آخر.

سوف يرحل ويترك المنـزل، وربما يتزوج امرأة أخرى أو يرافق أو أي شيء ليست به أي مسئولية، لكنه تذكر أن ذلك لن يمنع المسئولية فيعد سبعة أشهر سوف يكون حجم وحيد الخلية هذا قد نمى وصار طفلا عليه أن يفتح العالم بصراخه سيحمل اسمه أيا كان نوعه، ومن ثم سيطالبه الأهل والأصدقاء بهذه المسئولية.

هذا الحل لن يصلح، عليه أن يفكر فى حل آخر.

مازلت صغيرا

ضحك اصدقاؤه لكنك ستصير أبا بعد أشهر فإنسى حكاية الصغير هذه وتذكر الصغير الحقيقي.

إنها لم تعد تحبه، كانت تأخذ منه طريقًا لاشباع غريزتها الأممية، ألم تتضايق كلما عرفت بحمل إحدى صديقاتها، وهي التي كانت تؤجل الأمر بإرادتها بل كانت ترفض أحيانًا، ها هي غريزتها قد انتصرت واستطاعت إغوائي.

هل ببعض الحب والعري أقع فى هذا الشرك، كيف أغوتنى؟

فكر أن الاجهاض الآن هو أمر مناسبًا وهو لن يتعب امرأته لأنها فى بداية الحمل، وكذلك لم تبث الروح بعد فى وحيد الخلية، وجده حلا مناسبا.

استيقظ في منتصف النهار، أنهى عمله وانتظرها، عندما عادت من العمل كان لديه مبررات عديدة للشجار، وكانت هي قد أصبحت عصبية ولا تتحمل الشجار ومن ثم وبعد فترة قصيرة من الشجار طلبت منه الطلاق، فطلب منها ألا يبقى الطفل كشرط ليتخلى عنها.. ترددت ثم وافقت ومدت يدها تأخذ حبة سيكون لها هذا التأثير، أمسك يدها ورفض

قبلها واعتذر وضع يده على بطنها تحسسها، وبعد يعد يوم، اثنان، ثلاثة،...

الرجلُ ذو القبعة

..قصيرٌ داكنٌ كأنه لأب أو أم زنجية، كان هادئًا لا يتحرك كثيرًا، يرتدي قبعته ليل نهار، لا يخلعها حتى في نومه، الأمر مرجعه إليه فهي جزء من رأسه الأملس الأصلع على الرغم من كونه مُشعر تمامًا بل وجسده كثيف الشعر جدًّا.

في صمت يداري أحواله فهو لا يحب الشهرة، يتحرك متخفيًا، لم يفصح عن نفسه أبدًا، ولم تُجد معه كلُّ نصائح صديقه بالظهور، ربما كان يرى في قصره عيبًا، أو دكنة بشرته!

كان صاحبه يحكي أنه في لحظات يصير عملاقًا، يتمددُ فيزدادُ طوله حتى يتضاعف، يسمع الأصدقاء ويمزحون، فكيف لهذا القصير بكلِّ هذا الطول، في صمت يخجل ويصاب بالإحباط ويعود للتواري.

يؤكد صاحبه: رأيته طويلاً.. لم يصدقه أحدٌ، وحين راهنهم لم يستطع أن يراهن على قبعته، قال هو شخص أسطوريٌّ، حيوان صامت يعيش بين النباتات ولم يزد.. قال انتخبوا لي شخصًا واحدًا أريه كيف يستطيل الرجل ذو القبعة... لم يصدقوا كعادة الناس مع الأبطال الأسطوريين، لكنهم انتخبوا من بينهم فتاةً ذات بشرة قمحية وعيون سوداء لم تفهم لماذا اختاروها.

كانت حيلة بينهم، ربما أحبت الفتاة المتعجرفة هذا القصير فيتخلصون من كليهما.

قال لها صديقه أرجوك ألا تُشعريه بالخجل، وحين تجدينه قد استطال لا تندهشي وتعاملي بعادية معه، لم تفهم البنت لكنها في حب المغامرة نظرت له كانت تريد أن تعرف كيف يزداد طوله، الأمر خارج حدود الإحساس، يقترح التجريب، فينـزع عنه صفة الإنسانية إلى حد كبير لم ترفع عيناه عنه، مدت يدها تصافحه، شعرت بحرارة جسده، شعرت به ينتفض بين أناملها، لم تصدق وهي تجده عملاقًا قويًا وكأن ماردًا خرج لتوه من مصباح علاء الدين، قالت لا أصدق، اقترب منها فلمست دفئًا لم تعهده من قبل.

قالت أجرب

كان الأمر أسطوريًّا من أوله، حتى وهو يحملها إلى فضاءات مختلفة أرجعت الأمر لبعض الميتافيزيقا، ورفضت أن تفكر، لقد قايضت على عقلها وقالت ليكن أحد الكائنات التي تظهر مرةً واحدةً على الأرض، قالت ذلك وغابت معه في منطقة مظلمة، فقط شعرت به تمامًا يحيطها بحذر يلم بها و...

مشاعر وتفاصيل عديدة رفضت أن تصرح بها حتى إعلانها عن الفائز في رهان الرفاق، تركتهم جميعًا وانزوت، واحتفظت لنفسها بسرِّه وأسطوريته.

وهو في تواضع غريب توارى في هدوء، مُرتديًا قبعته ككل وقت، لم تفكر سوى أنه طائرها الذي يحملها إلى السماوات ولم يفكر إلا أنها همزة وصله بالكائنات الأرضية.

رضخت لصمته الطويل وهدوئه واتزانه وسط الناس، وقبلت أن يكون أسطوريًّا لها وحدها.. احترمت صمته وساعدته.

كلما ازداد قصرًا كانت بشرته تزداد دكنةً، لم تقلق كانت تعرفه في غير ذلك أما صاحبه فلم يراهن مرةً أخرى، أصابه الضجر لفعلته.

كرجل حكيم جدًّا أحكم قبعته على رأسه ونظر إلى أسفل وظل سائرًا.

النائمون

يبدأ اليوم عادةً بصوت منبه مزعج ينطلق من حجرة النوم أو من نافذة يتسرب عبرها أو حتى يمر من السقف.

عندما يبدأ الرنين يكون على كل السادة الذين يصلهم الصوت الانتباه والاستيقاظ بغض النظر عن كون موعد رنين المنبه يتناسب مع مواعيدهم أم لا؟!

علينا إذن أن نصحح فكرة أن اليوم يبدأ بشروق الشمس الذي يستيقظ على أثره الفلاح ويبدأ في تتبع ماشيته إلى الحقل.

السنوات الأخيرة أسهمت في تغيُّرٍ اجتماعيٍّ كبيرٍ في هذه البلد. ينظر إلى السقف نظرةً مباشرةً مُنتظرًا استيقاظ الجيران حتى يصمت الرنين.

لم ينم سوى ساعة واحدة فقط، لكنه -اتساقًا مع المنظومة العامة- سوف يفتح عينيه مع صوت هذا المنبه، مُحاولاً التقلب في الفراش كشكل من أشكال المراوغة مع فعل الاستيقاظ، لكن المراوغة لا تستمر وينهض من الفراش لأنها سوف تمرُّ عليه بعد لحظات! القلق صاحب رنين الهاتف.

المرة الأولى التي ستزوره فيها -مترددة بشأنها وبشأنه- قال لها: ماذا أفعل بكِ في حياتي؟!

لم تجد إجابة ولم تفرض نفسها عليه قط، غير إنها استمرت في الاتصال به ولقائه وكأن جملته الاستفهامية لم يكن لها مكان في أذنها.

سوف يحكي لها عن خطته لمحاربة الفقر.. وتوعية الصغار بمخاطر الاستحمام في الترعة، ومشروعاته في الارتباط بأنثى تقليدية لسداد نقاط النقص في حياته.

التمعت في عينيها بعض دموع عندما قال لها: أنتِ تـربكيننـي!

لم تعرف دلالة الارتباك ولا تجد أسبابًا حقيقيةً لمداومتها السؤال عنه وعن مشروعاته الدعائية، لكنها ترتبكُ ولا تجد إجابةً، فقط تحرص على مصافحته يدًا وهي تتركه.

يبدأ مشروعًا عن الصغار الذين يعملون في الورش، يذهب إلى المناطق العشوائية، ويزور الورش، يسخر بعضُهم وآخرون يتعالون وكثيرون لا يكترثون.

أحدُهم ظنه من الشئون الاجتماعية وسأله:

- هو انت يا بيه هتدِّيله كام بعد البحث ده؟

ضحك هذا الـ «أحدهم» وقال له:

- اِنت عارف ده يوميته كام وبيتحصل على كام؟... روح اِدي الفلوس دي للموظفين أحسن.

هذه الكلمات لم يكن لها أيُّ تأثير -سلبًا أو إيجابًا- على استمراره في مشروعه، كان يُعنى بحلم الطفولة بداخل هؤلاء الذين قفزوا فجأةً من بئر الطفولة.

مر بالعديد من الورش وكان يسجل ملاحظاته، في الجولات الأخيرة اصطحب كاميرا معه ليقوم بتسجيل لقاءاته بهؤلاء الصغار.

جمع مادةً لا بأس بها، قام بترتيبها وتبويبها.

اليوم لا يبدأ عادةً بشروق شمس كما دأبت الروايات على توصيفه، ربما يبدأ بصوت نفير سيارة تاكسي متهالكة جدًّا، يقودها سائقها بصعوبة بالغة وهو ينقل عجلة القيادة بين راحتيه.

يظل صوتَ الكلاكس لفترة طويلة حتى يهبط الصغار ليقلهم التاكسي إلى مدارسهم، هذه المرة لا يحاول المراوغة في

الفراش، إنما يستسلم لهذه البداية المبكرة لليوم، يفكر بها عندما اتصلت في اليومين السابقين لم يُجب على مكالماتها.

حاول أن يستبعدها من حياته، كانت له ابتسامةٌ حانيةٌ في المرة الأخيرة للقائهما، سألها إن كانت متعجلةً، بينما كانت تفتقده، وقتها كانت تفكر في ابتلاعه بداخلها، شيءٌ مجازيٌّ جدًّا ومَباغِتٌ جدًّا، تفكر أن يكون لها رداءٌ أشبه بملاءات اللف تلك التي استخدمها محمود سعيد ليغطي بها بنات بحري، تفكر أنها ستمسك بالملاءة وتلفها حول جسديهما في اتحاد يدفئها ويجعله لا يفلت هذه المرة.

لكنه استنكر سؤاله ونبرة الاهتمام الواضحة في صوته فانصرف عنها مُسرعًا، وعاود متابعة مشروعاته.

كانت تجلس بجواره وهو يجهز لمشروع جديد

- انتبه لي.

- قال: أسمعُكِ.

لم تشعر به فانصرفت.

بدأ يفكر، مشروعه التالي سيكون عن أطفال الإشارات..

أيُّ أطفال إشارات؟

كان عليه أن يحدد الفئة

الذين يبيعون الورد -المناديل الورقية- مستلزمات السيارات أم الذين يتسولون.

هل هم الذين يقومون بمسح زجاج السيارات؟

كان هذا المشروع كبيرًا وله أوجه عدة ويحتاج لفريق عمل.. لم يفكر في أيِّ شيء، غير إنه سيبدأ اليوم.

حمل كاميراته.. فكَّر قليلاً.. ماذا كان سيفعل لو لم ينفذ نصيحتها باقتناء كاميرا.

قالت: الكاميرا تقبض على لحظات لا يمكن للقلم وصفها أحيانًا، قالت أيضًا: إن البيانات لا تعني أرقامًا و وصفًا فقط، إذا كنت تكترث بالناس حقًّا فاكترث بمشاعرهم.

وقف في إشارة وبدأ يصور، تتوقف الإشارة ثم تسير السيارات، مرت قرابة الساعة وهو لا يغير مكانه.

لفتت وقفته انتباه عسكريِّ المرور الذي لفت بدوره انتباه أمين الشرطة.

توجه إليه الشرطيُّ، وضع يده بضغطة حرص ألا تكون حادةً، آخذًا في الاعتبار أن من يتجرأ على التصوير في هذه الإشارة لابد مسنود بطريقة أو بأخرى.

بعد تبادل حديث قصير ضمَّ عددًا من الاستفسارات من أمين الشرطة، كانت الحركة التالية صفعةً حادةً متعمدةً من أمين الشرطة مقرونةً بكلمات خارجة عن القاموس اللغويِّ المدرسيِّ، أخذ الكاميرا منه وتناوب هو وزملاؤه السخريةَ منه مصحوبةً بلمسات لها آثار على الجلد.

كان السوطُ يلمس الجلدَ مرةً ثم يُرفع، لكن أثرَه عميقٌ.

يسخرون منه

لماذا تهتم بالصغار.. اِنت بتاع عيال يا له؟

لو لم يسمع نصيحتها، ربما لم يكن هنا الآن، لكنها قالت أيضًا اِفعل ذلك لجهة تحميك، أنت تكترث بالناس، وهناك منظمات تُعنى بذلك فلماذا تعمل بلا مظلة؟

سخرَ منها وقال المظلةُ يستخدمها الناس في الشتاء للوقاية من المطر،

وبنفس منطقه قالت: ويستخدمها الناس في الصيف للوقاية من الشمس، والأيام صيف وشتاء، فهذا يعني أن الناس تستخدم المظلة دومًا.

يتعامل مع عباراتها بشكل انتقائيٍّ، يحب رؤيتها له، ومحبتها ويرفض اهتمامها ونصائحها، واتصالاتها.

كان هناك سائل دافئ ينساب على ظهره، لم يحتج إلى فطنة ليدرك أنها دماؤه.

صوتُ السوط كان بداية يومه التالي، ولم يكن لديه فراش أو حوض لغسيل الوجه. في استراحة الصوت، أدرك عقله أنهم أخذوا هاتفه المحمول، حفاظًا على الأمن، و ربما تجاهلوا اتصالاتها أيضًا.

كان يرغب في لقائها اليوم والبقاء معها لفترة أطول، يحكي لها عن الصغار الذين تسربوا من بئر الطفولة.

الحياة تختلف في ممارستها عنها في الكتب المدرسية،
كان يريد الاتصال بها.

فكَّر أن يعطي العسكري ٢٠ جنيهًا ويعطيه رقمها
ويطلب منها الاتصال.

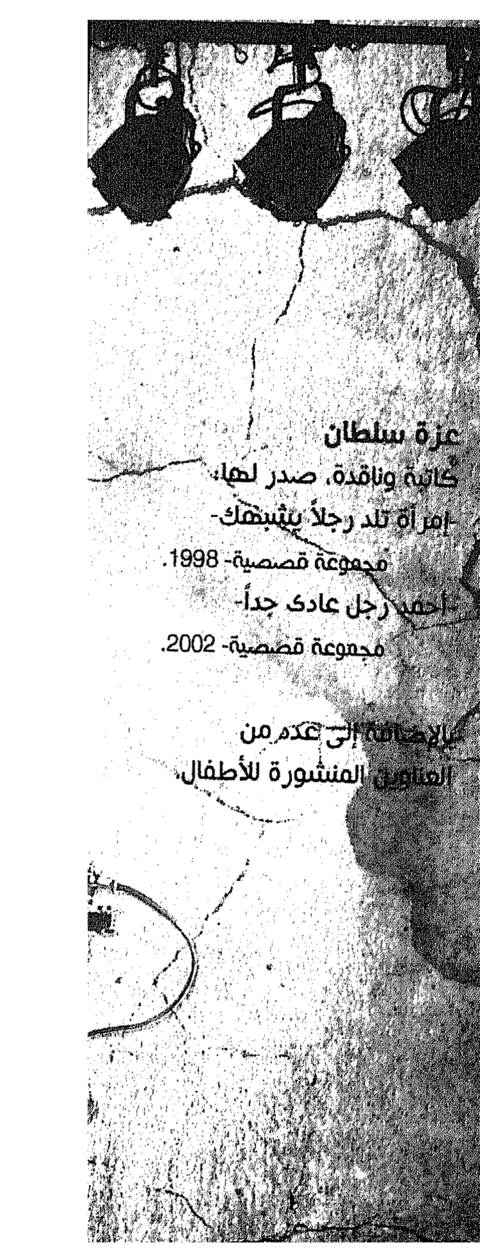
لحسن حظه لم يأخذ الضباط نقوده... أخذها العسكري!

عابرٌ من ستة ٧
قصةٌ أخيرةٌ قبلَ أن تنهيَ المكالمةَ ١٥
تمامًا مثلما يحدثُ في السينما ٢٣
بلا أوجه للمقارنة ٣١
ابتسامةٌ ودِفءٌ للموتِ ٣٩
قوس قزح الذي لم يظهر إلا مرةً واحدة ٤٣
أن تحلم ٥١
جملةٌ اعتراضيةٌ ٥٥
مياهٌ في البُحَيرةِ ٦١
مبرراتٌ لغلقِ العينينِ ٦٧
مساحةٌ كبيرةٌ من الهامشِ ٧١
صالةُ المزاداتِ ٧٥
Sex bride ٧٩
السَّماءُ الزجاجيةُ ٨٣
كم رجل تدعوه حبيبي؟ ٨٩
لن يأتي أحدٌ ٩٧
الشَّرَكُ ١٠٣
الرجلُ ذو القبعةِ ١٠٧
النائمون ١١١



أسباب وجيهه للفرح	شعر	عمر مصطفي
النبي الافريقي	نصوص	مينا جرجس
روجرز	رواية	أحمد ناجي
عن الهمس الذي يشيح	شعر	سعيد ابو طالب
النفس والجنس والجريمة	دراسة	خليل فاضل
سيد الخواتم الجزء الاول	رواية مترجمة	ترجمة:عمرو خيري
خروج	مجموعة قصصية	سلمي صلاح
ديل حصان	نصوص	بسمه عبد السلام
سيرة الاراجوز	شعر	خالد عبد القادر
خبز أسود	مجموعة قصصية	عمرو العادلي
عضو عامل	رواية	ماهر عبد الرحمن
فاتني ان اكون ملاكاً	نصوص	زهره محمد
3-2-1	قصص قصيرة	مليحه مسلماني
مترو	رواية مصورة	مجدي الشافعي
بريق لا يحتمل	مجموعة قصصية	سمر نور
بين ذراعي قمر	شعر	فاطمة الزهراء بنيس
مريم والحظ السعيد	قصص قصيره	مريم الساعدي

بكره مش مهم الساعه كام	شعر	هيثم دبور
الي العزيزة الغالية	قصص	عبير عبد الغفور
اقراص المسكن	شعر+ رسوم	هاني سامي
غرفة السيد بحر	رواية	كريم سامي
جردل وصابون سايل	مجموعة قصصية	رضوى أسامة
أسفار العزلة	نصوص	منال الشيخ
تسلل	رواية	جمال عمر
جوابات للسما	حواديت بالعامية	عمرو العادلي
تلة الذئب	رواية	سامي سعد
شرور عادية	شعر	أسامة الحداد
ما رواه النوم	رواية	هلال شومان
كليك شمال	شعر	عادل سلامة
ليسبو	رواية	أحمد وائل
عفاريت الراديو	مجموعة قصصية	محمد خير
انسان ما قبل الديمقراطية	رواية	اسلام محمود
الوان الفوضى	نصوص عربي +فرنسي	مي عزمي
جرادة بارتي	مسرحية	شادي الرفاعي
غواية الشر الجميل	مجموعة قصصية	أحمد ابو خنيجر
النمو بطريقة طبيعية	مجموعة قصصية	مجموعة كتاب
حكايات حجازية	مجموعة قصصية	معتز العلاوي
اعراض انسحابية	رواية	محمد ممدوح
تماماً كما يحدث في السينما	مجموعة قصصية	عزة سلطان
الصراع حول الديمقراطية	دراسة	عبد الغفار شكر



عزة سلطان

كاتبة وناقدة، صدر لها:

-إمرأة تلد رجلاً يشبهك-
مجموعة قصصية- 1998.

-أحمد رجل عادى جداً-
مجموعة قصصية- 2002.

بالإضافة إلى عدد من
العناوين المنشورة للأطفال.

